إلى القارئ

ازدادت عناية المسؤولين في الأسابيع الاخيرة بمشكلة الاطارات وافتتح رئيس الدولة والحزب الحر الدستورى بنفسه دروس المدرسة القومية للاطارات التى احدثت اخيرا ، بخطاب خصه لتأكيد أهمية الموضوع وكيف أنه يجب أولا رفع مستوى المواطنين حتى يدركوا المشاكل الجديدة التى اقتضتها الثورة الاقتصادية والاجتماعية ويكونوا على قدر من المعرفة والثقافة يمكنهم من التفاعل مع الروح الجديدة والالمام بجوانب الاشتراكية المتعددة وملابسات العصر الحاضر المختلفة ، ثم كيف يتحتم ثانيا تكوين المثقفين والاختصاصيين و « أهل الصناعة » تكوينا سياسيا عاما حتى « يتأصلوا » أكثر فأكثر في بيئتهم وتكون ردود فعلهم ازاء المعطيات القومية والأحداث بصفة عامة « تونسية » وينظروا الى شؤون البلاد نظرة « تونسية قومية »٠

وانها لمشكلة المشاكل بحق عالجها المفكرون منذ أفلاطون الى اليوم ! دور المفكر أو - المثقف - في المدينة ٠٠٠ او ما يعبر عنه بلغة السنين الاخيرة « الالتزام » ٠ ان موقفنا ازاء هذا الموضوع واضح : نحن لا نزال نؤمن بحرية المثقف والأديب عندما يتصدى للانتاج والخلق اذ لا ابداع من دون حرية واختيار ٠ ولكننا نؤمن كذلك بأن الاديب والمفكر والمثقف جميعهم مواطنون أيضا لهم حقوق المواطنين وعليهم واجبات المواطنين ولا يمكن للأديب من حيث هو مواطن ، وجوده مرتبط بحياة مجتمعه ، ألا يلعب دوره ويقول قولته ويساهم في خدمة الوطن الاصغر والوطن الأكبر ٠

انه نداء الى المثقفين ورجال الرأى ليشعروا بما ينتظرهم من اعمال ويبادروا بالمشاركة الفعلية في رفع مستوى اخوانهم والتعاطف معهم - بالمحاضرة والدرس والمقال ٠٠٠ - اذ تظافر العزائم ضرورى في هذه المرحلة الحاسمة من تاريخ البلاد ٠ والوطن لن يطوى المراحل في طريق التقدم حتى يؤدى رجال الفكر والعلماء واجبهم كاملا فينيروا الطريق ويوضحوا السبل! ان الشعب التونسى الذى احتفل يوم 5 ديسمبر المنصرم بمرور عشر سنوات على استشهاد فرحات حشاد لينتظر منا - نحن حملة الأقلام - الشيء الكثير ٠

وان روح حشاد وأرواح كل الشهداء لهى المغذية والمذكية للحماس ، الدافعة الى العمل الصالح ٠ وقل اعملوا ٠٠٠

الفكر

المرأة المثقفة في البلاد المتجهة الى النمو

بقلم : فتحية مزالي

انني وان كان بغيتي التحدث عن المرأة المثقفة في البلاد السالكة طريقها نحو النمو فانا متحدثة اولا وبالذات عن التونسية يقينا مني ان نساء هذه الاقطار كلها تجابه عين المشاكل. وريثما تزداد معرفتي بالعالم الثالث تعمقا في هذا الميدان فانا مقارنة بين وضعية المرأة المثقفة في تونس وبين وضعية نظيرتها المثقفة في البلاد الاكثر نموا.

وقبل أن نحدد للمرأة ما يجب أن تلعبه من دور في بلد متأخر في تطوره ، اليس لزاما علينا ان نحاول في البدء ان نتفق حول مفهوم هذه المثقفة وماهية منزلتها في المجتمع ؟ انني قائلة بكامل الصراحة ومن أول وهلة : ان هذه المثقفة قد لا تبدو دائما في مظهر يرفعها مقاما في عيون الآخرين. فاذا هي بالخصوص اقتصرت على تعاطي مهنتها بلبسها العصرى اصبحت محطا للمؤاخذة ، شأنها في ذلك شأن المرأة المثرية التي لم تحسن غير التأنق في اللبس. ان هذه وتلك لملومتان من حيث قد تحررتا لذاتيهما دون مراعاة لاخواتهن فاصبحتا فجأة تجولان عبر عالم مسوس بنواميس اجنبية فرضت عليه فرضا. فتصبح النساء الاخريات متأهبات دوما لترصد ما بقي لديهن من مظاهر الانوثة بالمعنى التقليدي والقومي في مختلف الميادين من أزياء وأوضاع ولغة وأساليب عيش. فيقال عن المثقفة انها ترتدي اللباس الاجنبي وتتحدث حديث الرجل ان عنّ لها ان تستعمل لغتها القومية. ولربما عدّوا من فضائلها انصرافها عن القيل والقال وعدم تشوقها الى ذلك وان اشفقوا عليها من اجل ما بلغت اليه من سذاجة بحيث اصبحت تضاهي الرجل سذاجة فلم تعد تشاطر اخواتها ما يخالجهن من أحاسيس.

انها على الحقيقة مواقف مؤسفة ازاء المتعلمات ولربما افضت الى تثبيط عزائمهن عن كل مبادهة. فكم من امرأة متعلمة نراها اصبحت تحقر من شأن نفسها كل التحقير حتى لا تنسب الى الشذوذ والخروج عن الجادّة.

على ان رد الفعل قد يكون أقرب الى العنف لدى طائفة أخرى من مثقفاتنا فقد يروقهن ان يصدمن بسلوكهن الخاص والعام في غير ما تحرج ولا اتزان بغية تحرير شخصيتهن التي اوشكت ان تختنق تحت وطأة التقاليد وان افضى ذلك الى تحطيم تلك الشخصية وسلبها كل فعاليّة نتيجة لذلك السلوك الاخرق وزبدة القول ان المرأة المثقفة غير محمودة الخصال في نظر السواد الاعظم ممن لا يعنون بالغنم المترتب عن تثقيف المرأة .

اما في نظر النساء المتعاطيات عملا فالمثقفة تبدو فاترة الحساسية أو بالاحرى غير ملتهبة الحماس فهي تفكر فوق المعتاد وتظل مترددة في أمرها ولاتقوم بتضحية من تلقاء نفسها وتبالغ في النظر الى المستقبل. ثم هي تسمح لنفسها بالحكم على غيرها وتلك هي الطامة الكبرى. على انها تعد نفسها متفوقة على غيرها منزلة وان كانت معائبها بادية للعيان وعلى كل فهي ذات عقلية مشوهة اذ كانت من صنع اجنبي. وهي لا تجيد مخاطبة النسوة الاميّات اللائي هن الاغلبية في البلاد. وهي متصلبة فوق ما يجب متشبثة باهداب نظم ذات صبغة إدارية تجعلها كريهة الى النفوس معرقلة للنشاط

ولئن تسامحنا معها فغاية ما تحسنه هو القيام بشؤون النشريات اذ المطبوع مما لاغنى عنه وهو مما يرتفع مقدارا في نظر الخاص والعام بسبب قداسة الكتاب . على ان النسوة المثقفات قليلات جدا بحيث قد يمكن الاستغناء عنهن ، ان اردنا ان نسارع إلى تطوير الجمهور من الشعب.

ولقد يعترف للمثقفات في مقابل ما سلف انهن لا يتنحين عن كتب دراساتهن وانهن يرزحن تحت وقر مسؤولياتهن العائلية والمهنية، فكذلك تعودن عدم الاهتمام بسوى شغلهن الذي هو في حد ذاته من الفروض الاجتماعية وهكذا تطمئن ضمائرهن لذلك الشغل على الرغم من تعدد حاجيات وطنهن..

واذ كان الرجال متمتعين بقرون عدة من التفوق فسيقع اللجوء اليهم في النهاية لكي ينيروا سبل الحركة النسائية. اما بالنظر الى شبابنا المثقف من فتيان وفتيات فلا اثر بتاتا للمثقفين بين ظهرانينا، لارجالا ولا نساء، او هم في حيز المنعدمين بيننا. ولما لحقهم من الحرمان المؤلم في عالم الفكر وما انتابهم من انفصام العروة التي تربطهم بوسطهم، فهم يحاولون الاحتفاظ بالجو الفكري

الذي تم فيه نضجهم التدريجي خارج القطر بمزيد الجهد وعميم الثمرات ولربما تكون قد استهوتهم خلال المؤتمرات العالمية بعض التصريحات الفوضوية المتحمسة من حيث اللهجة فتناسوا انها كانت تستهدف خاصة تقرير مبدا النظام والخضوع للنواميس الصارمة.

هذا ونحن نجد المثقف في البلاد المتقدمة التي تكون في طليعة الرقي المادي، نجد المثقف هنالك يكافح بعنف في سبيل ايجاد تيار فكري مستحدث، لكن ذلك التيار المستجد انما اقيم على أسس ما سبقه من الافكار المنتظمة في سلك بيئة معينة، وكل ما اقترنت به هذه المكافحة من العنف فله ما يعدله ويكبح جماحه في تلكم العادات المتأصلة الراسخة بمالها من اسس فكرية وفلسفية؟

اما في البلد الذي يكون بصدد النمو فردود الفعل من ذاك الصنف الذي يروق الكثيرين انما تتجه بحملاتها الى صنفين من الناس، فأناس لاقبل لهم بها وليس في طوقهم ان يجابهوها الا بما أوتوا من ذوق سليم قد يكون متناهي القصور، واناس لايدركون ان كل فكرة مصطبغة بلون الارض التي ولدت فيها فمجرد المحاكاة العمياء لاتكون الا وخيمة العقبى، ولو في تدبير الشؤون الفكرية، حين تنتقل من بلد مكتمل نموه الى ما دونه في الاكتمال.

ذلك ان السواد من الشعب يجب ان يفسح له المجال كي ينخرط في عالم يكون ضرب بسهم في تشييده تدريجيا معتمدا في ذلك على ذكائه الفطرى. اما المثقف الذي هزته النشوة وكان غير متريث في امره فربما زلت به القدم وجرّ غيره الى مغامرات ذات اخطار وآلام حيث لم يوفق هو نفسه الى اقامة اتزانه على أساس الانسجام بينه وبين قطره وحاجيات ذاك القطر.

وعلى كل حال فالمثقف في اي بلد هو الذي يعمد الى امعان النظر قبل اعتناق اي فكرة وانما يتم منه ذلك الامعان بواسطة ما حصل لديه من ثقافة وانه للرجل الفذ الذي يبصر من الصلات بين الاشياء ما قد خفي عن نظر سواه والمجدد الذي يدفعه ايمانه الى الخلق. انه الرجل المكتمل الوعي الذي يظل فكره مفتحا لكل جديد يانع الثمرة حتى لايقع في هوة التعصب الديني او النعرة القومية الضيقة، وكذلك هو اللبيب الذي يحسن انتهاز الفرصة لانجاز

كامن اشواقه وابلاغ رسالته بحيث يصبح نشاطه منسجما مع ملابسات اى مجتمع من المجتمعات. ونلاحظ في هذا الصدد ان الخبراء من الاجانب يدرون كامل الدراية كيف يقيمون الوزن للملابسات المحلية سائرين في أعمالهم بحسب ما تقتضيه. فلربما كانوا اكثر تأثرا منا بالسمات الخاصة بكل بلد، فنحن قد اعتدنا النظر الى القديم والحديث متصبين هذا الى جانب الآخر. وكذلك هم غير مهملين الاسترشاد وجمع المعلومات والوثائق متنقلين في البلد المعني بالامر متناقشين مع كافة ذوي المسؤوليات فيه.

في استطاعة المثقفين ان يصبحوا خبراء لاقطارهم الفتية لو انهم عمدوا الى الاسترشاد واستقصاء المعلومات عن قطرهم، ولو ان وقر أشغالهم لم يكن قد ارهقهم واستنفد نشاطهم.

ونعود الى موضوعنا المحدود فنقول : ينبغي للمرأة المثقفة ان هي أرادت ان تقوم بوظيفتها في بلدها الذي هو في الصميم من تطوره، ينبغي لها كذلك، الى جانب النضال عن مركزها في المستوى الاممي، أن تكون قادرة على العمل في الحقل الوطني المحلي، ولو كان ذلك في حيز فكري بحت. بيد أنها تكون بمثابة الدعية في ذلك الحيز الفكري ما دامت منعزلة في عالمها الضيق عالم كتبها ومهنتها وأسرتها. فلزام عليها اذن — وهذا هو الجوهر واللب من خصائصها — ان تلتمس الوسيلة الى التعرف الى وسطها وتفهمه كيما تكتب لها النجاعة في سعيها، فمن المقارنات والمناقشات تنبثق الأفكار. ففي بلد بصدد النمو يجب ان تمشي المساعي كلها جنبا الى جنب ، ولا يحسن اطالة الوقوف.

والذى لايحتمل بحال هو أن تبقى المثقفة في عزلتها وهي التي ما تنفك طول يومها تعالج شؤون الفكر وتحلل النظريات، بينما مستقبل بلادها محل الاخذ والرد وطوع الجزر والمد. فلتبحث المثقفة عن نفسها كيما تحدد الدور المناط بها وتعي خصائص موقفها. فلا يدرك من شأن لبعض المنعرجات التاريخية الا بعد ان يقع تجاوزها وتصبح في ذمة التاريخ. على المثقفة اذن ان لا تكتفي بمقعد متفرجة كيما تصبح فيما بعد مؤرخة او مولعة بجمع داثر الحطام. لتخلق هي نفسها كيانها في الحال ومالها في الاستقبال وذلك بالعمل في سائر الحقول، لتساهم بمناقشتها في كافة ما يخصها من القضايا، ولتأخذ موقفا حيالها.

واني لاعتقد في النهاية ان الصعب دون ريب هو ان نشرع في العمل ونحن نرهب الاخفاق فيه.

فتحية مزالي

حــول مشكلة الاطــارات

دور المثقف في خلق مجتمع أفضل

بقلم : عبد المجيد رزق الله

يقيني أن مشكلة الاطارات هي أمّ المشاكل التي يتوقف عليها نجاح معركتنا الكبرى معركة البناء والتشييد. ويعتبرها المفكرون الاقتصاديون والاجتماعيون الغربيون الذين انكبوا على دراسة مشاكل البلدان المتخلفة أو – التي هي في طور النموّ – أمثال فرنسوا بيرو وألفراد سوفي وروني ديمون وغيرهم أكثر أهمية من عوامل النمو الاخرى كالتخطيط والمساعدات الاجنبية وحتى رأس المال نفسه لاسباب واضحة اذ على الاطارات وعلى الاطارات وحدها يتوقف حسن التصرف في كل تلك العوامل.

وما من شك في أن المثقف هو في طليعة هاته الاطارات لخلق مجتمع أفضل هو المجتمع الذي نهدف اليه طبقا لمبادىء اشتراكيتنا الدستورية.

ودور المثقف هذا هو محل عناية واهتمام المجاهد الاكبر الرئيس الحبيب بورقيبة وحكومته الشعبية وحزب الامة العتيد. ولا ادل على ذلك من احداث كتابة الدولة للشؤون الثقافية والاخبار وما ترمي اليه من أهداف سامية وبرامج حافلة وكذلك تأسيس معهد الحزب للاطارات القومية الذي أشرف على افتتاح دروسه المجاهد الاكبر نفسه بخطابه المنهجي أمام اطارات الامة وتلامذة المعهد في 22 نوفمبر 1962.

وقد كان من حسن الصدف أن آطلع المجاهد الاكبر على نقط الضعف في اضطلاع المعلمين والاساتذة بالتدريس وخاصة في مادتي التربية الدينية والتربيةالمدنية قصد تكوين مواطنين صالحين.

كما كان من حسن حظ هاته الامة أن قرر المجاهد الاكبر ايضا القاء دروس بنفسه بالمعهد في التربية الاخلاقيةسعيا منه الى توضيح المبادىء السامية التي يجب أن تسود المجتمع الذي نريده.

ولكل هاته الاسباب يجب على المثقفين من أبناء شعبنا انيشعروا كامل

الشعور بأهمية دورهم ويقدروه حق قدره وأن يتسلحوا لأداء رسالتهم الانسانية على أحسن وجه لخلق مجتمع أفضل.

مـــن هـــو المثقف ؟

ولنا قبل كل شيء أن نتساءل من هـو المثقـــف ؟

ان لفظة المثقف لا تعني المؤلف والاديب والفنان فحسب بل تعني أيضا الخبير والمهندس والاقتصادي ورجل القانون والطبيب الى غير ذلك من أنواع التخصص في الميادين الاجتماعية والاقتصادية الضرورية والمتشعبة في عصرنا الحاضر عصر العلوم والاختراعات والتقدم والازدهـار.

والمثقف بهذا المعنى ليس من واجبه خدمة نفسه بتقاضي أجر يقابل العمل الذي يقوم به فحسب بل من واجبه ايضا وأولا وبالذات خدمة الشعب الذي ينتمي اليه بصفة خاصة وخدمة الانسانية بصفة أوسع وأعم.

وفي هذا الصدد يقول الطبيب والكاتب اللبناني الدكتور جورج حنّا في وصفه للادباء وقد نعتهم "بمهندسي الانسانية" : "لايكفي الاديب أن يكون فنانا ومصورا لحالة المجتمع الذي يعيش فيه ومشاكل الناس الذين يعايشهم. ان ما يجعل الاديب مهندس انسانية تخطيه دور الفنان الذي يصف ويصور ليأخذ دور المعلم والملهم والملهب مشاعر الناس وأفكارهم لخوض معركة الاصلاح المجتمعي وتحرير الانسان من ظلم أخيه الانسان..."(1)

على أن الواجب الذي يتحتم على المثقف القيام به نحو مجتمعه ونحو الانسانية لايمكن أن يوجد الا اذا اقترنت الثقافة بالوعي الاجتماعي السليم والمبادىء الاشتراكية السليمة.

فالثقافة تميز كل شعب عن غيره من الشعوب والامم وذلك بابراز شخصيته والتعبير عن الامه واماله وذلك في شتى ميادين الانتاج الفكري والفني.

ولذا يجب ألا توجد لذاتها بصفة مجردة بل يجب أن تكون عنصر اشعاع لفهم الحياة وحل مشاكلها وعنصر تقدم ورقي لفائدة الانسان أولا وبالذات.

(1) من كتاب "هذه الانسانية"... للدكتور جورج حنا نشـــر دار العلم للملايين بيروت.

وليتسنى للمثقف القيام بواجبه على هاته الصورة يجب أن يتحلى بعدد من الصفات الاجتماعية وهي الوعي والاخلاص والتأثير.

أما الوعي فهو الشعور بحياة المجتمع وحاجاته والتجاوب مع الآخرين في سرائهم وضرائهم والمتعلم لايكون مثقفا حقيقيا الا اذا خرج من عزلته واتصل بالآخرين وتالم لآلامهم وفرح لافراحهم.

وأما الاخلاص فهو التنازل والتضحية بالمصلحة الشخصية لفائدة مصلحة الجماعة. ويجب أن يكون هذا الاخلاص عميقا ومنعشا للنفوس عند القيام بالواجب نحو المجتمع وعند الشعور بخدمة الانسانية مع الصدق في القول والاخلاص في العمل.

الا ان الوعي والاخلاص في حد ذاتهما لايكفيان ويجب على المثقف نقلهما الى المحيط الذي يعيش فيه .وبكلمة أخرى يجب عليه أن يؤثر في من حوله ليكتمل مميزاته. وهذه الميزة الثالثة من مميزات المثقف اي ميزة التأثير هي أهمها. وهي التي تمكنه من الخروج الى المجتمع وحثه على فهم قضاياه وحل مشاكله كما تمكنه أيضا من تزويد مواطنيه بمعلوماته وتوجيههم التوجيه الصحيح. ويمكن للمثقف أن يؤثر في من حوله بطريقتين : الاولى طريقة الاستمالة ومخاطبة العاطفة وبث الشعور والوعي والحماس والثانية طريقة الاقناع ومخاطبة العقل بالفكرة والدليل والحجة والبرهان. وبذلك يكون المثقف في طليعة البناة لحياة فضلى.

مــا هو المجتمع الافضــل ؟

والآن ما هو المجتمع الافضل الذي نريده ؟

ان تصورنا له بين من أهداف كفاحنا وهو الذي تتحقق من خلاله سعادة الانسان وفرحة الحياة الكريمة ونحن لم نكافح الاستعمار ولم نحقق الاستقلال ولم نركز نظاما جمهوريا الا لخدمة الشعب وتخليصه من كل القيود والقضاء على اختلال التوازن ماديا كان او فكريا وتحقيق النمو الكامل للفرد والمجتمع معا طبقا لمبادىء اشتراكيتنا الدستورية التونسية في نطاق التضامن والاخوة والعدالة والمساواة. اننا اليوم أمام وضع متدهور ورثناه عن قرون من سبات عميق كان يسود بلادنا ضمن بقية البلدان العربية والاسلامية الاخرى في حين أن بلدان أوروبا فاتتنا في ميادين النهضة الفكرية والعلمية

أشواطا كبيرة . ومما زاد الطين بلة الفترة الاستعمارية. التي ادخلت الخلل على توازن مجتمعنا وزادته تدهورا وصيرت بلادنا في صف البلدان المتخلفة.

ولا شك أن هذا الوضع يتطلب اصلاح الاوضاع وفي مقدمتها الاوضاع الفكرية والخلقية بصفتها الخلاقة والباعثةللمجتمع الذي نريده والذي يجب أن يسوده التشبع بالمبادىء الانسانية السامية وحب الخير والعمل الجماعي في سبيل مستقبل أفضل ترفرف عليه الحرية الحقيقية والكرامة البشرية في كنف التضامن والاخوة والمساواة والعدالة.

ولايتسنى ذلك الا بتسليط العقل على الاشياء واعتبار المبادىء الاخلاقية السامية وهي طريقة تربينا عليها في حزبنا العتيد في كافة ميادين الكفاح سواء التحريري منه أو الاقتصادي والاجتماعي الذي أصبح هدفنا الاول اليوم أو الديبلوماسي بالدعوة الى احترام حرية البشر والتعاون النزيه بين الدول لفائدة الجميع وهو ما نرمي اليه من تكوين اطارات صالحة متسلحة بالمعرفة والعلم الذي يجب أن يكون المنبع لكافة أوجه نشاطنا.

وكما يقول أحد رجال الفكر في الشرق العربي وهو الدكتور حسن صعب استاذ العلوم السياسية بجامعة "بيروت": "اننا هنا أمام التحدي الاكبر لنا ونحن في طريقنا الى المجتمع الافضل تحدي الطابع المميز لانسان القرن العشرين تحدي التحرر بالعلمية أي بالعلمية لا كمعادلة ولا ككتاب ولا كمدرسة ولا كآلة ولا كمصنع ولا كسيارة ولا كنسبة للمتعلمين ولا ككمية من المعرفة بل كنظرة شاملة للوجود والحياة والانسان والمجتمع نظرة قوامها الثقة بالعقل الانساني وبقدرته اللانهائية على الفهم والتفسير والخلق والتنظيم نظرة لحمتها آخر معطيات العلوم الانسانية والاجتماعية وهدفها الاقرب اعادة تنظيم المجتمع... وفقا لهذه المعطيات المتجددة ودابها اتخاذ هذه المعطيات القاعدة الاولى لكل تفكير أو تنظيم. ان القاعدة العلمية للتفكير والتنظيم لا تكفي وحدها فلا بد أن تكملها القواعد الروحية والفلسفية والخلقية ولكن جميع هذه القواعد لاتكون حقيقية ان لم تستند اولا الى القاعدة العلمية"(2)

على أن المبادىء السامية التي يجب أن تسود المجتمع الافضل يمكن تحديدها مع الدكتور حسن صعب أيضا على النحو التالي :

---

(2) من كتاب "الوعي العقائدي" للدكتور حسن صعب نشر دار العلم للملايين — بيروت

"اولا – المجتمع الافضل هو المجتمع المنفتح المتحرك تحركا أزليا في سبيل التحسن الذاتي...

ثانيا : ... وهو الذي استطاع الانسان أن يسيطر فيه على جميع القوى الطبيعية وأن يسخرها تسخيرا عقليا وخلقيا قويما لا لخير قارته او امته أو طبقته أو جنسه... بل لخير كل انسان.

ثالثا – ... وهو الذي انتظم انتظاما عمليا يمكن كل انسان أن يقدم له بحرية ورغبة وسعادة أقصى طاقته وأن ينال منه مقابل ذلك كامل حاجته.

رابعا – والمجتمع الافضل هو نتيجة لكل ذلك المجتمع الذي انتصرت فيه امكانيات الانسان الخلاقة الروحية والعقلية فأصبح قادرا على الاسهام في اغناء التراث الحضاري الانساني وفي العمل على اسعاد الجنس البشري كله وأصبحت المحبة جوهرا لنشاطه الحر الخلاق"(3).

هذه في عجالة بعض الآراء حول مشكلة الاطارات التي نحن في حاجة اليها والصفات التي يجب أن يتحلى بها المثقف الحقيقي والرسالة العظمى الملقاة على عاتقه والأهداف السامية التي يجب عليه تحقيقها.

وهي تبين حاجتنا الملحة الى الثقافة لا لذاتها بل خدمة للمجتمع بصفة خاصة والانسانية بصفة أعم كما تهدف الى المساهمة في توضيح الاهداف التي على المثقف تحقيقها وهي القيام بدوره الطليعي في تسخير عقله ومواهبه واخلاقه لتوضيح السبيل والعمل على تحقيق المجتمع الافضل الذي نريده والذي يجب أن يسوده حب الخير والتضامن الاخوي في سبيل اسعاد الانسان أولا وبالذات.

وبذلك – وبذلك فقط – يمكن للمثقف أن "يتمتع بلذة الكفاح ليسعد بفرحة الحياة" كما قال المجاهد الاكبر الرئيس الجليل الحبيب بورقيبة.

الدكتور عبد المجيد رزق الله

---

(3) من كتاب "الوعي العقائدي" للدكتور حسن صعب - نشر دار العلم للملايين بيروت

ل. ماسينيون وتاريخ الاسلام

بقلم محمد الطالبي

اتصلت بلويس ماسينيون، اتصال التلمذ والطلب، سنة 1947. ثم ما فتئت فيما بعد اتردد عليه في بيته بشارع م. لوبرانس من حين الى حين كلما سمحت الظروف وسنحت فرص الاسفار. وكان الشيخ الاستاذ يدهش الطلبة بسرحة الخاطر ووثوبه من ميدان الى ميدان بدون تخلص يلمس: لقد كان أمام الاستطراد. فكانت دروسه تكتسي صبغة اشارات خاطفة، وعبارات غامضة، ولمحات سريعة: كانت دروسه نسيجا من وميض، وميض الحدس المتدفق. فكأنه يدرك حقائق الاشياء بدون ستار، ويريد منك أن تقتفي خطاه، وكثيرا ما قصرت خطى القوم عن خطاه، ولعل الاليق بمن لم يرزق الهامه ومواهبه ان لا يتوغل طويلا في سبيله فيضل من حيث يريد أن يهتدي. فليس كل من لبس الصوف صوفيا.

ذلك أن الشيخ ماسينيون كان اماما فذا في صناعته. أحب الاسلام. فاخلص للكثوليكية؛ وأدرك سر التنزيل، فارتاح يقينه بأسرار الانجيل: فهو كما قيل اكثر المسيحيين اسلاما. بحث طول حياته، عن همزة الصلة بين الدينين، فوجدها في ابراهيم الخليل؛ وأراد أن يؤلف بين أهل الملتين فدعاهم الى "الحجّ" معا، الى "الحج"" الى صالحين يقدسهم الاسلام كما تقدّسهم المسيحية، الى اهل الكهف الذين بقصتهم نطق التنزيل. فلقد خصهم ل. ماسينيون ببحث عميق طويل الذيل، ولقد "حجّ" الى كهفهم شرقا وغربا، في قسيون بسوريا، ومقاطعة بريطانية بفرنسا، إذ التقديس الشعبي والاخبار الكثيرة وردت بذكر الكهف وأهله في مناطق متعددة من بلاد الله. ذلك هو الشيخ ل. ماسينيون: هو الحاج ابدا الى كعبة الوحدة والاخاء والفهم والاخلاص.

وانك لتجد هذه الروح، روح "الحج" والطلب، في كامل ما نشر.

بدأ ل. ماسينيون حياته العلمية ببحث تاريخي محض، خصصه للوزّان الزياتي، المغربي المنشأ، الايطالي المستقر؛ المسلم في أوله، المسيحي في خاتمته

حتى أن اسمه الذي به الآن يعرف هوجان ليون الأفريقي.(1) لقد درس شيخنا مؤلفه في صفة المغرب درسا لم يبل رغم مرّ الزمان حتى ان ابولار، عندما نشر الكتاب سنة 1956 اثنى على هذا الدرس "الذي بقي وثيقة أساسية" جزيل الثناء. ولقد بقيت هذه الروح التاريخية تخالج ل. ماسينيون الى آخر أيام حياته. فنحن ندين له ببحوث اساسية عن بغداد، والكوفة، والبصرة، ومقابر القاهرة، والحياة الاقتصادية بالعراق في القرن الثالث، خاصة عن جهابذة التاج من الاسرائيليين ومراكز بنوكهم بمصر وقرطبة.

ولم يشتغل ل. ماسينيون بماضي المسلمين فحسب بل انكب ايضا على الحاضر، وذلك من فجر اشتغاله بالبحث. ففي ايام ليوتي بالمغرب صنف مؤلفه في الصناعات التقليدية، ومازال ذلك المؤلف يدهشنا اليوم بغزارة المعلومات وتنوعها. ولقد صنف تقويم العالم الاسلامي واعتنى باللغة، لا في المجامع فحسب، بل ايضا في البحوث العديدة.

غير ان الشيخ ل. ماسينيون، قبل كل شيء، باحث عبقري في تاريخ الاسلام، وكل ما كتب في غير هذا الموضوع، انما هو في الحقيقة حواش على متن واحد يريد ان ينيره من جميع النواحي : الاسلام . أراد ان يلمس الاسلام في نفس شهيد من شهدائه، وقتيل قتله سيف ظاهر التنزيل: ألا وهو أبو منصور الحلاج، إمام أهل الباطن والتصوف سكر الحلاج فانطلق لسانه في سكره بقوله : "انا الحق" فقبض عليه، وسجن وحوكم، وقطعت يداه ورجلاه من خلاف، ومزق جلده السوط، وطهرت النار من جسمه الارض. وبعد الف سنة راجع ل. ما سينيون الحكم في اكثر من الف صفحة، واستعرض كل الوثائق استعراضا كاملا مدهشا، استيعابا، فلم تكد تفوت تنقيبه مطبوعة ولامخطوطة. ومن خلال قضية الحلاج استعرض المؤلف كامل شؤون الحياة الدينية في القرن العاشر، وأماط اللثام خاصة عن خصب التصوف الاسلامي وسموه الى قمة الروحانيات. فكان مؤلفه اهم مؤلف ظهر في ميدان التصوف، وسوف يبقى ولاشك مثالا به يقتدى ومعينا لاينضب يغترف منه كلّ الباحثين في هذا الميدان فان الاجتماعية الدينية تدين للويس ماسينيون بواحد من أهم مؤلفاتها وأغزرها مادة.

(1) A. Epoulard, el -wazzan ez-Zayyâti. (Les Africains). Description de l'Afrique, nouvelle ed. et trad. Brell 1956

وكان الشيخ ماسينيون لغويا – لقد كان عضوا بمجمع اللغة العربية بالقاهرة، شارك في اعمال هذا المجمع بصفة فعالة الى سنة 1960 – وكان لغويا رزق حدسا غريبا، مكّنه أن يفهم اشارات اهل التصوف ورموزهم، فاستطاع ان يترجمها ترجمة لم تضح بشيء من موسيقى الشعر وثراء المعنى. وهكذا مكن العدد العديد ممن لا يفهم لغتنا أن ينفذ الى اعماق الروحانية الشرقية. وفحص ايضا فحصا علميا مصطلحات اهل التصوف الفنيّة وخصها ببحث فريد في بابه. فلقد فتح بعمله هذا آفاقا بعيدة في وجه كل من يهتمّ بتاريخ الديانـــات.

وكان ميله يذهب به خاصة الى درس الفرق المنحرفة عن السنة، فدرس الاسماعلية، وفحص آراء القرامطة والنصيرية، واشتغل بالخوارج، وعاشر على الخصوص اهل الباطن والتأويل. واني اذكر فيما اذكر على الخصوص دروسه في لغة القرآن، وبحثه دائما عن اخصب تأويل، وابعده واعمقه. ذلك انه كان يخشى دائما ان يستر الحرف بستره الحالك نور المعنى والروح. وهذه الرهبة هي التي دعته ان يتهم الفقهاء – وان كان قل من يحسن احسانه معرفة آراء الفقهاء وأصولهم ومذاهبهم – وان يقف منهم موقف الحذر. فهو لم يجد عندهم حاجته : التحليق في اجواء الروح والذوبان في بحر الحقيقة والوحدة. لذلك عاشر اهل الباطن والتصوف، ولاشك انه تأثر بهم أيما تأثر في حياته ومثله الأعلى.

وكيف يفهم الاسلام وتاريخه اذا ما نظر اليه بمنظار السنة فحسب، وقيس بمقياس الفقه فقط ؟ ان فضل ل. ماسينيون على مؤرخي الدين الاسلامي لايجحد . فهو اعظم داعية دعا الى فهمه على طريق النفوذ الى اكثر القلوب ايمانا به، قلوب من استشهدوا بحرفه واحترقوا بلهيبه. وهو ايضا درس هذا الدين ليفيد منه ويثرى، لاليجادل فيه، ويناقش، ويستدل به عليه. ولقد فتح بعمله هذا عصرا جديدا، عصر محاولة الفهم عوض البحث السلبي عن العورات التي منها يؤتى الحصن. فلعمري لم يفتح الحصن فاتح عنوة الى اليوم. لكن الضيف يجد فيه حسن الوفادة وطيب القرى. ولقد نزل الشيخ ل. ماسينيون ضيفا على الاسلاميات، فاحسن آداب الضيافةواخلص لها كل اخلاص ،ونفع وانتفع. ولقد كان الشيخ في حياته قلّ ما تحدثت اليه فلم يحدثك عن الضيافة والشهادة. ولعمري لقد كان احسن ضيف واحسن شاهد.

محمد الطالبي

كيف عرفت مـــــــــاسينيون

بقلم : احمد بكير

ترجع معرفتي بالفقيد الى صائفة 53 ببغداد يوم كنت طالبا بجامعتهـا ، وقد جاء ماسينيون لالقاء محاضرة فى الفتوة العراقية بالمعهد الفرنسى هناك . وفى شتاء 56 اتصلت به فى بيته شارع مسيو Rue Monsieur للاستفسـار عن بعض شخصيـات تتعلق بالموضـوع الذى اخترته لاطروحـة الدكتوراه ، فكان ماسينيون يعرف عن مالكية العراق اكثر مما يعرفه اى مالكى معاصر ، لاسيما وان القاضى الذى حاكم الحلاج هو مالكى ، الامر الذى حمله على ان يدرس المالكية بالعراق ، واستمرت زيارتى له أيام الآحـاد لا للحديث عن المالكية فى الشرق ، بل لان الرجل كان عبارة عن معلمـة سياسة معـاصرة ، فاذا جئته وألقيت عليه سؤالا فى التاريخ أو التصـوف أجاب وأفـاض لكنـه سرعان ما ينتقل الى الشرق ومشاكله ولـورانس ، والانجليز ، والملك فيصل وعبد الله والشريف حسين ، والكرم العربى والشهامة العراقية ، والنكسة التى اصابت الفكر العربى منذ اتصاله بالاتراك ، وكانت أحاديثه تتكدس فيها المعلومات والآراء العميقة فمرة يحدثك عن صوفية الحلاج المسيحية مقارنا بينها وبين زهد الترابيست Les trappistes ثم يعود الى خجله من الشرقيين العرب الذين وعدهم بوعود لم يـوف لهم بها ساسة فرنسا فى ذلك العهـد ، وانقلابه على ساسة فرنسا متهما اياهم بالسفه والجشع الاستعمارى والكذب السياسى . ثم يدخل فى مـوضـوع حقيبته وكيف سرقت لـه فى دمشق ثم ارجعت بدون ان ينقص منها شىء سوى علامـة بالاحمر وضعت تحت جملة من تقرير سرى كتبه لوزارة الخارجية ، وكان الكومندان كاترو اذذاك حاكم دمشق العسكرى وكان يكره ماسينيون حتى انه بعد هذه الواقعة اشترط على الفقيد ان لا يأتيه ومعه حقيبة . هكذا كان المأسوف عليه يحدثك عن نشاطه السياسى والعلمى أيام كان يشتغل بالسياسة بصراحة قل أن تجدها عند غيره ، وكان يحب العرب والعربية ويعترف فى تواضـع للعلماء الكبار اذا سألوه عن شىء لا يعرفه فلا يتظاهر بالمعرفة وهو لا يعـرف . كان ماسينيون مثـالا فى ذكائه وعلمه ، صريحا واثقا من شخصيته لا يرهب أحدا اطلاقـا فاذا أراد ان يقول رأيه فى شخص مهما كانت قيمته قاله بدون ان يتلكأ أو يخاف . وهو النصير

الشجاع للقضية العربية فلقد ساند سوريـا بارائـه الجريئة فى كفاحها ومن بعدها تونس والمغرب والجزائر ، الامر الذى جلب له عداوة المتطرفين المتنطعين واعتدائهم عليه فى بعض محاضراته ، وكان يرى فى القضية الفلسطينية قضية عربية عادلة وكثيرا ما يواسى المنكوبين من أبناء فلسطين فيزورهم فى مخيماتهم ويدعو لهم فى صلواته • والى جانب هذا كان ماسينيون مسيحيا عاملا ذا عقيدة حارة يرى مبادىء السيد المسيح عليه السلام ويحاول جهـده تطبيقها فى كـل نواحى حياته ، وكان المستشرق الوحيد الـذى لا يحمل فى نفسه على العربية والعرب ولا يلمز جانبهم ، بل يتنبأ بمستقبل زاهر ونهضة عربية فاذا زرتـه قانطا حانقا خرجت من عنده والامل والحبور يمـلآن جنبيـك ، فـلا أظـن أن ماسينيون ترك فى المستشرقين من هو مثله ، اللهم الا العلامة جيب Gibb الانكليزى الذى يرى ما يراه ماسينيون وسلوكه لا يختلف كثيرا عن سلوكه ما عدا الشجاعة التى امتاز بها الفقيد • والشرق لا شك يعتـرف بمزايا هذا الراحل الكبير كما يعترف بمزايا امثاله من العلماء أمثال سيديو ونيكولسون ولوبون وجولدزيهر وبروكلمان وسوفاجى وبروفنسال لكن ماسينيون اكثرهم نبلا واكرمهم اخلاقا واصدقهم قـولا ، اما الاب ويليـام فقد رزئت فيه تكرونة وحدها (1) •

فالى اصدقاء الراحل وتلاميذه عزاء ، فقد كان جديرا بكل احترام واكبار •

لموت ماسينيون خسارة للشرق العربى قبل ان يكون خسارة لفرنسا فى وقت قل انصار هذا الشرق فى هذا البلد • كان وحده يجاهر بمزية الحضارة العربية على حضارة اوروبا • قال لى مرة لولا الحـروب الصليبية لبقيت اوروبا تغط فى نومها الى اليوم • ولـولا الاندلس لما وجـد ادب فـرنسى فى العـصر الوسيط ، ولولا الفقـه المالكى لما وجد بفرنسا قانون مدنى له سمعته ، ولولا العرب لاندثرت آراء أرسطو وأفلاطون وطاليس وأضرابهم •

ان رجلا يعترف بكل هذا ويكرس حياته لخدمة العرب والعربية لجدير بكل اعتبار • فلينم ماسينيون ، فنحن دائمو التفكير فيه لاهجون بمزاياه حافظون لحقوقه معترفون بما اسدى لنا •

احمد بكير

---

(1) الى صديقنا الفاضل الاستاذ بويحيى عن مقاله ماسينيون ، الفكر ، عدد ديسمبر 1962 • كان ويليام مارسى عالما شغل نفسه بسفساف العلم ومن تآليفه الكثيرة التى لا تقرأ • دارجة تكرونة ...!

في عـــــزلتي

شعر شريفة فتحي

شَيَّدْتُ لي دُنْيَا بِجَنَّاتِ الخَيَالِ
وبَنَيْتُ لي عُشّاً بِأحْضَانِ الليالي

وهَرَبْتُ مِنْ أسْرِي ولُذْتُ بِجَنَّتِي
أحْيَا، وخِلِّي في الهَوى رُوحُ الجَمَالِ

في وَاقِعِ الدُّنْيَا أنا مِلْكُ الـقَضَا
حُمِّلْتُ مِنْ أقْدَارِهِ فَوقَ احْتِمَالِي

أمَّا هُنَا فِي جَنَّتِي فَأنَا الـقَضَا
أنْهَى وآمُرُ كَيْفَ شِئْتُ ولا أبَالِي

أنَا حُرَّةٌ ألْهُو وأمْرَحُ فِي المَدَى
وَطَلِيقَةٌ مِنْ كُلِّ قَيْدٍ أوْ عِقَالِ

جِسْمِي هُنَا فَالأرْضُ تَحْكُمُ كُنْهَهُ
والرُّوحُ فِي الاكْوَانِ تَسْرِي كَالظِّلالِ

فِي أيِّ أفْقٍ شِئْتِ أطْلِقُ خَطْوَتِي
وَبِأيِّ أرْضٍ أشْتَهِي ألْقِي رِحَالِي

فاذا اسْتَحَالَ عَلَيَّ تَحْقِيقُ المُنَى
حَقَّقْتُهُ فِي جَنَّتِي رَغْمَ المُحَالِ

فَأنَا بِلاَ قَيْدٍ يُقَيِّدُ وُجْهَتِي
وَأنَا بِلاَ حَدٍّ يُحَدِّدُ لِي مَجَالِي

كَمْ ذَا أشَرْتُ إلىَ النُّجُومِ بِأفْقِهَا
وَأنَا أقُولُ (إليَّ يَا ذَاتَ الدَّلاَلِ)

فاذا بها فِي لَحْظَةٍ قَدْ أقْبَلَتْ
وَتَنَاثَرتْ حَوْلِي كَحَبَّاتِ اللآلي

وَلَكَمْ رَكِبْتُ أنَا وَطَيْفُكَ زَوْرَقِي
وَنَشَرْتُ أجْنِحَتِي أحَلِّقُ فِي الاعَالِي

وَبِهِ تَسَاقَيْنَا رَحِيقاً نَشْتَهِي
مِنْ خَمْرِ نَشْوَتِنَا بأقداحِ الوِصَالِ

وَتَقَارَعَتْ كَأسِي بِكَأسِكَ نَشْوَةً
وَلَكَمْ صَفَالِي الكَأسُ مِنْكَ وَكَمْ حَلاَلِي

وَتَنَشَقَتْ رُوحَ الرَّاحِ مِنْ بَحْرِ الشَّذَى
وَنَهَلْتُ رَاحَ الرُّوحِ من نَبْعٍ زُلاَلِ

حَتَّى إذَا مَاالحُبَّ أسْكَرَنَا هَوىً
نُلْقَى بِرَأسَيْنَا عَلَى صَدْرِ الهِلاَلِ

وعلَىَ ضِفَافِ النِّيلِ كَمْ هِمْنَا مَعاً
وَالبَدْرُ يَزْهُو بِالسَّنَا زَهْوَ اكتمال

وَمَعَ الاصَائِلِ كَمْ تَشَاكَيْنَـا الجَـوَى
بينَ المُرُوجِ وَفِي الرُّبَا عَبْرَ الْجِبَالِ

نَحْيَـا مع الآمَـالِ فِي مُسْتَقْبَـلٍ
وَنَعِيشُ فِي ذِكْـرَى لَيَالِينَـا الخَوَالِـي

وَهُنَـا إذا مَا الفَجْرُ أيْقَظَ غَفْـوَتِـي
أصْحُـو فأُدْرِكُ أنَّ لِلـدُّنْيَا مَـآلِـي

وأرَى النُّجُـومَ تَبَاعَدَتْ فِـي أُفْقِهَـا
والْقَلْبُ يَلْهَثُ ظَامِئًا وَالكَأْسُ خَالِـي

فَأَعُـودُ أدْلِفُ فِي غَيَاهِبِ طِينَتِـي
ومع النَّهَـارِ يَتِمُّ أسْرِي واعْتِقَـالِـي

يَا مَـنْ لَكُمْ دُنْيَـا كَدُنْيَا عُزْلَتِي
كَمْ ذَا بَكَيْتُ لَكُمْ وَكَمْ أبْكِي لِحَالِي

لَهْفِـي عَلَيْنَـا كَمْ نُضَيِّعُ عُمْـرَنَا
نَبْنِي بِأوْهَامٍ قُصُورًا فِـي الرِّمَـالِ

شريفة فتحي

مع الجاحظ المفكر الاجتماعي

بقلم : احمد خـالد

ان الـجاحظ فضلا عن كونه أديبا قبل كل شيء، مفكّر ديني وسياسي وناشط معا(1) وعالم "طبيعي" صنف كتاباطويلا في علم الحيوان ومـلاحظ اجتماعي ومفكر أيضا امتاز بدقّة الملاحظة وفطن الى بعض مبادىء علم الاجتماع الصحيحة وإن لم يدمج تلك المبادىء في إطار هيكل.

ويهمّنا الجاحظ المفكر الاجتماعي كما تهمنا منهجيته كلما نزع نزعة علمية في بحوثه هذه. فعودة الى مؤلفاته من كتب ورسائل تمكن الباحث من تقدير القيمة الإخبارية لبعض الوثائق ذات الصبغة العلمية الاجتماعية، ومنهجية الجاحظ، حق قدرها.

أجل إننا نجد أفكارا عزيزة عليه كفكرة التوتر الطبيعي الباطني الموجود داخل كلّ خليّة اجتماعية (Antagonisme Social). لاحظ أبو عثمان ذلك التوتر عند كتاب الدواوين فلامهم بقوله : "إنكم لتناكرون عند الاجتماع والتّعارف، تناكرَ الضباب والسلاحف "(2) ثم ضرب لهم في ذلك مثلا فقال : "هم كالهرَاهرة من الكلاب في مرابضها يمرّ بها أصناف الناس فلا تتحرك وإن مرّ بها كلب مثلها نهضت اليه بأجمعها حتى تقتله "(3)

وربما ينقلب هذا التوتر الباطني داخل كل خليّة اجتماعية الى تعصب على أفراد خليّة أخرى والى تعاطف على النظراء وذوى القرابـات، فاقرأ لتتيقن من ذلك قولهُ في رسالته " في ذم أخلاق الكتّاب" : "وإنـه ليَبلغني أن رجلا من القصّابين يكون في سوقه فيتلّف ما في يَدَيْه فيخلي له القصابون سوقهم يوما ويجعلون له أرباحهم فيكون بربحها منفردا، وبالبيع مفردا، فيسدُّون بذلك خلّته ويُجْبِرُون منه كَسْرَه"(4).

(1) انظر مقالنا في مجلة "الفكر" السنة 6 — العدد 7 — افريل 1961

(2) انظر رسالته "في ذمّ أخلاق الكتاب" ط فينكل finkel — القاهرة 1926 ص 46 .

(3) المرجع السابق ص 47 .

(4) نفس المرجع ص 47

ولقد مكنت فكرة التناكر عند الاجتماع (Antagonisme Social) الجاحظ من تعليل التطاحن الموجود بين الاجناس الخمسة في جند الخلافة. ومن المعلوم أن الجاحظ السياسي قام بمحاولة توفيقية في رسالته الى الفتح بن خاقان "في مناقب الاتراك وعامة جند الخلافة" بين البنويين والموالي والخراسانيين والاتراك والعرب في جند المتوكل، فأرجعهم جميعا بفضل عملية من منطق المغالطة تعرضنا اليها في عدد من مجلة الفكر الغراء(1) الى جنس واحد هو الجنس العربي. وأراد الجاحظ توحيد صفوف جند الخلافة عن طريق العصبية لاعن طريق الأخوة الدينية وذكر بعد عمليته الجدلية أنه ان بقي في صفوف الجند بعد محاولته التوفيقية شيء من التعقيد والضغن والاستثقال، فإنما مرد ذلك كله هذا التوتر الباطني الطبيعي "الذي لا يزال يكون بين المتقاربين في القرابة وفي الصناعة وفي المجاورة"(2) وهذه مغالطة أخرى يعمد اليها الجاحظ الشغوف بمنطق المغالطة (Sophisme) ليُرجع الشعوبية الى التوتر الاجتماعي. ولكن الشعوبية أخطر من أن تكون مجرد توتر باطني بين أفراد المجتمع الواحد. وغاية الجاحظ من هذا التعليل للشعوبية أن يبين أن التناحر بين الاجناس الخمسة في جند الخلافة يومئذ أمر طبيعي يوجد في القرابات وفي بني الاعمام، وقد قرر أن الاجناس الخمسة "في معظم الامر وفي كبر الشأن وعمود النسب متّفقون"(3) وليس ذلك التناحر اذن بالامر الخطير كما زعم المتهجم على جيش الخلافة في مجلس من مجالس الفتح بن خاقان، لان "التوازر والتسالم في القرابات وفي بني الاعمام والعشائر أفشى وأعم من التخاذل والتعادي"(4)

وعلى كل فان الجاحظ يستغل فكرة عزيزة عليه لخدمة أهدافه السياسية وتعليل التيارات الشعوبية الموجودة في جند الخلافة العبّاسية في عهد المتوكل، تعليلا يوافق مذهبه السياسي.

وفطن الجاحظ الى نظريات أخرى أقرها علم الاجتماع كنظرية أثر البيئة في الكائن واختصاص الشعوب.

---

(1) انظر الفكر - نفس العدد -

(2) انظر "رسالة الى الفتح بن خاقان في مناقب الاتراك وعامة جند الخلافة". ط. فان فلوتن - ص - 21 بريل 1903 -

(3) نفس المصدر ص 21

(4) نفس المصدر ص 21

فالرأي عنده أن لكل شَعْب ميزة وأن هذه الميزةَ تُمليها البيئة غالبا وهذه الفكرة أي فكرة اختصاص الشعوب شاعت في عصر الجاحظ وعَرَضَها أبو عثمان في مواطن كثيرة من "كتاب الحيوان" وفي رسالة : "فخر السودان على البيضان" وعرضها خاصة في "رسالة الى الفتح بن خاقان في مناقب الاتراك وعامة جند الخلافة" فاقرأ ما قاله عن ميزة سكان الصين : "فأمَّا سكَّان الصين فهم أصحاب السبك والصياغة والافراغ والإذابة والاصباغ العجيبة وأصحاب الخرط والنحت والتصاوير والنسج والخطّ ورفق الكف في كل شيء يتولَّونه ويعانونه وان اختلف جوهره وتباينت صنعته وتفاوت ثمنه" (1) فهذه الميزاتُ كلُّها تدل على أن اهل الصين برَعوا في الصناعات الدَّقيقة الفنيَّة. فهم اذن اهل فن ولا بد للفنَّان من أن يكون مرهف الاحساس ، حسن الذوق ولا شك أن الجاحظ يعتقد أن البيئة الصينيَّة هي التي أرهفت إحساس الصينيين وخَلَقَتْ فيهم المواهب الفنيَّة.

ولقائل أن يقول : كيف عرف الجاحظ ميزات أهل الصين هذه ؟ إنَّ أبا عثمان بصريّ وكانت البصرة في أيامه مُلْتقى طرق التجارة تؤمها القوافل التجارية الواردة من افريقيا وفارس ومن الهند والصين ولاشك أن الجاحظ شاهد لَوْحَات جميلة لاهل الصين حملها التُجَّار معهم الى العراق كما أعْجِب بالحلْي الصيني الطريف وبالنقوش والاصباغ الصينية العجيبة، والجاحظ أديب والادب فن ، فلا غرابة أن يتذوق أبو عثمان هذه الآثار الفنية. زِدْ على ذلك دقةَ الملاحظة التي امتاز بها وحبَّ التطلُّع على خصائص كلِّ شعب، تَفَهُّم السِّرِّ في المام الجاحظ لميزات الشعوب. فقد لاحظ أنّ سكان الصين امتازوا "بِرِفْقِ الكَفِّ" أي بلينه ولُطْفِه.

ولاحظ عقليةَ عَرَب الجزيرة في القديم، تلك العقلية المتمثلة في احتقار الاعمال اليدوية من صناعة وفلاحة وتجارة. وليس أدل على ذلك من قوله : "وكذلك العرب لم يكونوا تُجَّارا ولاصُنَّاعا ولا أطبَّاء ولا حُسَّابا ولا أصحاب زرع لخوفهم من صغار الجزية ولم يكونوا أصحاب جمع وكسب ولاأصحاب احتكار لما في أيديهم وطلب ما عند غيرهم ولاطلبوا المعاش من ألسنة الموازين ورؤوس المكاييل ولا عرفوا الدوانيق والقراريط" (2) لكن كيف يعلل الجاحظ هذه العقلية العربية القديمة ؟ لعلَّه يرى أن بيئة

(1) انظر "رسالة في مناقب الاتراك وعامة جند الخلافة" ص 44
(2) المرجع السابق ص 44 — 45

الجزيرة تدفع البدوي الى البحث عن قوته وكسبه وغناه في ميادين أخرى غير الفلاحة والصناعة والصياغة. ومن هنا تولد احتقار الفلاحة والاعمال اليدوية في ذهن العربي فوجّه همّه الى أشياء أخرى. ولم يطلب العرب المعاش "من ألسنة الموازين ورؤوس المكائيل ولاعرفوا الدوانيق والقراريط" لانهم "كانوا سكان فياف وتربية العراء"(1) وكلمة العراء في نص الجاحظ هامّة تدلنا على أن هذه الصناعات لم تنتشر في بيئتهم إذ أنها عراء وقفر. وما يشك في أن الجاحظ يؤمن ايمانا قويا بأثر البيئة في الكائن على الاطلاق.. فلقد امتاز العرب في قفرهم بالشدة والصبر وتعود الافتراس والاعتناء بالقول وللقول عند العرب شأن عظيم "فحين حملوا حدهم ووجهوا قواهم الى قول الشعر وبلاغة المنطق وتشقيق اللغة وتصاريف الكلام وقيافة البشر بعد قيافة الاثر وحفظ النسب والاهتداء بالنجوم والاستدلال بالآثار وتعرف الانواء والبصر بالخيل والسلاح وآلة الحرب والحفظ لكل مسموع والاعتبار بكل محسوس وأحكام شأن المناقب والمثالب بلغوا في ذلك الغاية وحازوا كل أمنية"(2) هذه هي ميزات العرب حسب الجاحظ، ولا ريب أنها ميزات أوجدتها البيئة العربية، فإنهم اهتموا مثلا بعلم الانواء لالمعرفة النجوم بل لتتبع مساقط الغيث لندارة الماء في الجزيرة وقيمته عندهم.

ويحدثنا الجاحظ عن ميزة الاتراك ويقارنهم بالعرب فيرى أنهم أصبحوا أهل حرب بموجب بيئتهم ونوع تربيتهم. فاقرأ لمزيد تيقن من ذلك قوله: "ولم تكن هممهم غير الغزو والغارة والصيد وركوب الخيل ومقارعة الابطال وطلب الغنائم وتدويخ البلدان وكانت هممهم الى ذلك مصروفة"(3) والاتراك بهذه الخصال أولى اذ هم "أصحاب عمد وسكّان فياف وأرباب مواش وهم أعراب العجم"(4) فهل علمت أن الدولة العباسية كانت تعتمد على قوّة الجند الاتراك في عصر الجاحظ، بل أصبح الخلفاء ألعوبة في أيديهم، وصار الاتراك أهل الحل والعقد يومئذ وقد عرفوا بالشدة والبطش.

ولم يقتصر الجاحظ على ذكر ميزات الترك وسكان الصين والعرب بل أدرك كذلك ميزات اليونانيين فقال: "فاليونانيون يعرفون العلل ولا

(1) انظر رسالة مناقب الاتراك ص 45
(2) المصدر السابق ص 45
(3) المصدر السابق ص 46
(4) نفس المصدر ص 46

يباشرون العمل" ولكن الجاحظ يغالي عندما يُقِرّ بأنهم لايباشرون العمل ونحن نعلم أنهم شيدوا البُنْيَان الضَّخْم وما لوا في أزهى عصور حضارتهم الى الفنون الجميلة فنحتوا التماثيل وأقاموا الهياكل، وتفنّنوا في الصناعات. غير أن أبا عثمان يشير الى أهم ميزات اليونانيين وهي الفلسفة.

وأدرك الجاحظ ميزات أهل السند كما فَطِنَ الى ميزات سُكَّان الهند في عصره فقال في الهنود على لسان الزّنج : "وأما الهند فوجدناهم يُقَدّمُون في النجوم والحساب ولهم الخط الهندي خاصّة ويقدّمون في الطب ولهم أسرار الطبّ وعلاجُ فاحش الادواء خاصّة ولهم خَرْطُ التماثيل ونحتُ الصور بالاصباغ ... ولهم الشطرنج وهي أشرف لُعْبَة وأكثرها تدبيرا وفطنة ولهم السّيوف القلعيّة وهم ألعبُ النّاس بها وأحذقهم ضربا بها ولهم الرّقى النّافذة في السُّمُوم وفي الاوجاع ولهم غِنَاء معجب ولهم الكنكلة وهي وَتَر واحد"(1).

فَخَبِّرْني هَلْ تَعْرِفُ كاتبا عربيا في عصر أبي عثمان، وبعده حدّثك بمثل هذا الحديث، وأطلعك على ميزات الشعوب وخصائص الاجناس؟ إنّ أبا عثمان لجدير بأن يُسَمَّى كاتبا إنْسَانيًّا إذ كان الانسانُ دائِمًا محْوَرَ بُحُوثِه.

لاشَكّ أنّك أيْقَنْتَ الآن أنّ فكرة اختصاص الشعوب فكرة عزيزة على الجاحظ. والرأي عنده أيضا أنّ هذا الاختصاص من شأنه أنْ يجعل الانسان يحذق الفنّ الذي يَتَخَصَّص فيه حذقا تاما. فهاهو يقول في رسالته : "في مناقب الاتراك وعامّة جند الخلافة"، بعد ذكر ميزة الترك وهي الحربُ : فحين لم تشغلهم الصناعات ولاالتجارة ولا الطب والفلاحة...

وكانت هممهم الى ذلك (أي الى الحرب) مصروفة وكانت لهذه المعاني والاسباب مسخرة ومقصورة عليها وموصولة بها أحكموا ذلك الامر بأسره وأتوا على آخره"(2)

ويرى بالعكس أن تشتت الجهود من شأنه أن يجعل الانسان لا يحذق من الفنون التي يقسم فيها هواه شيئا بأسره ولا يبلغ فيه الغاية. فأقرأ لمزيد

(1) انظر كتاب "فخر السودان على البيضان" ط. فان فلوتن – بريل 1903 ص 84

(2) أنظر رسالة مناقب الاتراك ص 46

تيقن من رأيه في نتيجة تشتُّت الجهود في الفنون المختلفة قوله في فصل من "رسالة مناقب الاتراك وعامة جند الخلافة" يورده الجاحظ قبل ذكر ميزات الشعوب : " ثم اعلَمْ بعد هذا كلّه أنّ كلّ أمّة وقرن وكلّ جيل وبني أب وجَدْتهم قد برعوا في الصناعات وفَضَلُوا النّاس في البيان أو فاقوهم في الآداب أو في تأسيس المُلك أو في البصر بالحَرْب فإنك لاتجدهم في الغاية وفي أقصى النهاية"(1) ويعلل الجاحظ ذلك بقوله إنّ "مَنْ كانَ مُتَقَسَّمَ الهَوَى مشترك الرّأي متشعب النفس غير مُوفَّر على ذلك الشيء ولا مهيئا له بأسره لم يبلغ فيه غايته" (2) ويضرب بعد ذلك أمثلة ليُدعم نظريته ويبين نتيجة الاختصاص، وذاك سبيل كلّ عالم باحث يبدأ بعرض نظرية فيقول : "كأهل الصين في الصناعات واليونانيين في الحكم والآداب والعرب فيما نحن ذاكروه في مَوْضعه وآل ساسان في المُلك والاتراك في الحروب. ألاترى أنّ اليونانيين الذين نظروا في العلل لم يكونوا تُجّارا ولا صُنّاعا بأكُفِّهم..." (3)

ويتّصل بفكرة اختصاص الشعوب نظرية "أثر البيئة" عند الجاحظ. فهو يعتبر أنّ كُلّ أمّة وليدةُ بيئتِها ولا شكّ في أنّ هذه النظرية تفسّر في رأي الجاحظ ميزات الشعوب.

لقد فطن أبو عثمان الى "أثر البيئة" في الكائن على الإطلاق من انسان وحيوان ونبات. ومال الى هذه النظرية ميلا خاصا اذ نجدها في مواطن مختلفة من مؤلفات أبي عثمان، نجدها في "كتاب الحيوان" كما نجدها في "البخلاء" ونجدها في رسالته "مناقب الاتراك وعامة جند الخلافة" وفي "كتاب فخر السودان على البيضان"، فهاهو يقول في "كتاب الحيوان" على لسان صنف من الدّهرية : "لاننُكر أن يفسُدَ الهواء في ناحية من النواحي فيفسُد ماؤهم وتفسُد تُربتُهم، فيعمل ذلك في طباعهم على الايام" (4) وإنما يذكر الجاحظ هاهنا أثر بعض البيئات السيء لانه بصدد الحديث عن المَسْخ أهو بإرادة إلاهية أم هو تحول بمفعول البيئة. ويُرْجع بخل أهل مَرْوَ، الموجود أيضا في حيوانهم وطيورهم الى أثر البيئة فيقول في

(1) نفس المصدر ص 43
(2) نفس المصدر ص 43
(3) نفس المصدر ص 43
(4) أنظر كتاب الحيوان ط . عبد السلام هارون، القاهرة 1940 ج 4 ص 70.

"كتاب البخلاء" : "وقال ثمامة : لم أر الديك في بلدة قطّ إلا وهو لافظ يأخذ الحبّة بمنقاره ثم يلفظها قُدّام الدجاجة إلا ديكة مرو فإني رأيت ديكة مرو تسلب الدجاج ما في مناقيرها من الحبّ. قال فعلمت أن بخلهم شيء في طبع البلاد وفي جواهر الماء، فمن ثمّ عمّ جميع حيوانهم"(1)

ويقول على لسان السودان : "والسواد والبياض إنما هما من قبل خلقة البلدة وما طبع الله عليه الماء والتربة ومن قبل قرب الشمس وبعدها وشدّة حرّها ولينها وليس ذلك من قبل مسخ ولا عقوبة ولاتشويه ولا تفضيل" (2) ولئن بينا في بحث سابق(3) أنّ الجاحظ يسخر من السودان في كتابه "فخر السودان على البيضان" ويستعمل منطق المغالطة، فإننا لاننفي وجود أمور جديّة في هذا الكتاب. وهذه الملاحظة جدية وليست من قبيل النُكتة. وينكشف لك موقف الجاحظ من المسخ الإلآهي في قوله على لسان الزنج : "ونحن نقول إنّ الله تعالى لم يجعلنا سوداً تشويها بخَلْقنا ولكن البلد فعل ذلك بنا"(4) وحُجَّتُهم "أنّ في العرب قبائلَ سوداً كبَني سُلَيْم بن منصور وكل من نزل الحرّة من غير بني سُلَيم كلُّهم سود وأنهم ليتخذون المماليك للرعي والسقاء والمهنة والخدمة من الاشبانيين ومن الروم نساءهم فما يتوالدون ثلاثة أبطن حتى تنقلهم الحرة الى ألوان بني سُليم"(5) ويذكرون أثر تلك الحرة وهي أرض في عالية نجد ذات حجارة سوداء نخرة في الكائن على الاطلاق، فيقولون : "ولقد بلغ من أمر تلك الحرة أن ظباءها ونَعَامَها وهوامّها وذئابها وثعالبها وشاءها وحميرها وخيلها وطيرها كلُّها سُود"(6) .

وحدثنا الجاحظ في "كتاب الحيوان" عن أثر حرّة بني سليم هذه في الانسان والحيوان والنبات، فقال : "وقد نرى حرّة بني سليم وما اشتملت عليه من إنسان وسَبُع وبهيمة وطائر وحشرة فتراها كلها سوداء".(7)

(1) كتاب البخلاء ط. طه الحاجري ص 18
(2) كتاب فخر السودان على البيضان ص 81
(3) انظر "الفكر" العدد 7 — افريل 1961
(4) فخر السودان ص 81 — 82
(5) فخر السودان ص 82
(6) فخر السودان ص 82
(7) كتاب الحيوان ج4 ص 71

والرأى عنده أيضا أنّ لكل بيئة مفعولا خاصا على حدّ قوله :

"والسواد والبياض إنما هما من قبل خلقة البلدة وما طبع الله عليه الماء والتربة ومن قبل قرب الشمس وبعدها وشدّة حرّها ولينها"(1) وتفهم ذلك خاصة في قول الجاحظ على لسان الدهرية في "كتاب الحيوان" عند الحديث عن أثر بعض البيئات السيء : "ولم يَثْبُتْ عندنا بالخبر الذى لايُعارضُ أن الموضع الذى قلب صور قوم الى صور الخنازير هو الموضع الذي نقل صور قوم الى صور القرود، وقد يجوز أن تكون هذه الصور انقلبت في مهبّ الريح الشمالي، والاخرى في مهبّ الجنوب"(2)

على أن البيئة لاتعمل عملها حسب الجاحظ إلاّ بعد دهوروهذا يذكرنا بنظرية التطور عند "داروين " و"لامارك". فإن لطول الزمن أهميّة في التطور . فهاهو يقول : "لا ننكر أن يفسد الهواء في ناحية من النواحي فيفسد ماؤهم وتفسُد تربتهم، فيعمل ذلك في طباعهم على الايام"(3). ويهمّنا قوله "على الايام" كما تهمّنا كلمة الدهر في قوله : "ويجوز أن يكون ذلك (أى التحول الى صور القرود وصور الخنازير) كان في دهر واحد، ويجوز أن يكون بينهما دهر ودهور"(4).

لقد فطن الجاحظ لما فَطِن له "لامارك" و"داروين" قبل ألف سنة. على أننا لا نغالي فندعي أنه عالم بأتمّ معنى الكلمة لأنه أديب قبل كل شيء، وان وُجدت عنده بذور علمية سوف تأتي أكلها فيما بعد. ولئن اهتدى الجاحظ الى ما اهتدى اليه "داروين" وغيره، فإنه لم يشيد ملاحظاته الدقيقة في إطار هيكل ولكن هل يطالب الجاحظ بأمور ما كان في استطاعته ولافي استطاعة علماء عصره الاهتداء اليها.

نعم لاحظ أبو عثمان تغيُّر لون الجراد والديدان والفَرْع بتغير البيئة التي تعيش فيها، فقال في "كتاب فخر السودان على البيضان" :"وقد نرى جراد البقل والريحان وديدانها خضرا ونرى قملة رأس الشابّ سودا ونراها إذا ابيضّ رأسه بيضا ونراها اذا خُضِب حُمْرا"(5) وجدير بالذكر أن هذه

(1) كتاب فخر السودان ص 82
(2) كتاب الحيوان ج 4 ص 72
(3) كتاب الحيوان ج 4 ص 70
(4) كتاب الحيوان ج 4 ص 73
(5) فخر السودان ص 82

المعاني عزيزةً على الجاحظ يذكرها في كتاب "فخر السودان على البيضان" ويعرضها في "كتاب الحيوان" فانظر الى قوله : "وترى جراد البقول والرّياحين وديدانها خضراء، وتراها في غير الخضرة على غير ذلك. وترى القملة في راس الشاب الاسود الشّعر سوداء، وتراهـا في رأس الشيخ الابيض الشّعر بيضاء، وتراها في راس الاشمط شمطاء، وفي لون الجمل الاورق. فـإذا كانت في راس الخضيب بالحمرة تراها حمراء، فإن نصل خضابُه صار فيها شكلة من بين بيض وحمْر. (1) لقد فطن الجاحظ الى اثر البيئة في تحول الفرعة والدودة والجرادة. ولئن شعر بأنّ غريزة البقاء وحفظ الجنس هي التي تملي هذا التحوّل، فإنّه لم يُصرّح بذلك شأن "لامارك" و"داروين".

أيقنت ،حفظك الله، أنّ لهذه الوثائق أهميّة كبيرة بالنسبة لعصر الجاحظ وتجلّت لك، أبعد الله عنك الشّبْهة ناحية لايستهان بها من نواحي تفكير أبي عثمان .وقد تسألني، بعد هذا عن منهجيّة الجاحظ كلّما سلك مسلكا علميا في بحوثه ذات الصبغة الاجتماعية ! فدونك فصل "أثر البيئة" من "كتاب الحيوان" (ج 4 ص 70—74)، فامعن النظر فيه تجدْ أقساما ثمانيةً تدلك على طريقة من أهم طرق الجاحظ في البحث العلميّ.

إنّه يبدأ في مرحلة أولى بعرض نظرية "أثر البيئة" على لسان صنف من الدّهريّة فيقول : "وقال الصنف الآخر : لا ننكر أن يُفسد الهواء في ناحية من النواحي فيفسد ماؤهم وتفسد تربتهم ، فيعمل ذلك في طباعهم على الايام" وتهمنـا جملة الجاحظ : "وقال الصنف الآخر" إذ تدلنا على أنّه يقف موقف العالم الذي يأتي بالنظرية ونقيضها. فحديث الجاحظ عن أثر البيئة يدخل في اطار المسخ، وهذا يبرر اشتغاله بأثر بعض البيئات السيء. فلقد أنكر الصنف الاول من الدهرية المسخ، ولكن الصنف الثاني أقرّ به إذا كان المسخ بمعنى التحول بمفعول البيئة. ويذكر الجاحظ رأي الفريق الاول من الدهرية ثم كأنه يقول شأن كل عالم يأتي بالفكرة وضدها : "وأقول في ضدّ هذا".

وبعد عرض نظرية "أثر البيئة" يورد الجاحظ على لسان الصنف الثاني من الدهرية أمثلة وحججا تدعـمها، ويرجح في مرحلة ثالثة تتّصل بالمرحلة

(1) كتاب الحيوان ج 4 ص 71

الثانية. أنّ لكل بيئة مفعولا خاصا وأنّ هذا المفعول يقتضي زمنا طويلا. وفي مرحلة رابعة عَوْد الى النظرية لاثباتها. فإن الدهريّة يقبلون فكرة المسخ إذا كان بالمعنى الذي ضبطوه من قبل أي بمعنى التطور بمفعول البيئة. وجدير بالذكر أنّ المراحل الاربعَ هذه تُدعّم النظرية (Thèse).

ثم يأتي الجاحظ بِضِدّ النظرية (Antithèse) في المرحلتين الخامسة والسادسة، فيورد أولا موقف استاذه النظام إذ يعتبره حجة وبرهانا في عصره". وموقفُ أبي اسحاق النظام حَرِج إذ يحتمل صحة فكرة المسخ (بمعنى التطور بتأثير البيئة) ولكنه كمعتز لي يرجح المسخ بإرادة الآهية. وها هنا يوافق الفريق الثاني من المعتزلة وعلى رأسه أبو بكر الاصمّ وهشام بن الحكم اللذان يقولان بالقلب (أي التطور مع المحافظة على الهيكل والصورة) بإرادة الآهية.

ولعلّك تُنكر على الجاحظ إيراد آراء رجال الدين في نظرية علمية. ولكن لا يُسْتَغْرب ذلك منه لانه معتزليّ، تفقّه في الدّين وشيد لنفسه مذهبا اعتزاليا عرف بالجاحظية. ولقد طبعته ثقافته الدينية بطابعها الخاصّ فلم يتحرر من قيودها في بحوثه ذات الصبغة العلمية في "كتاب الحيوان" وفي كتب أخرى. ولم يفصل أبو عثمان بين المعرفة العلمية المعتمدة على العقل وبين المعرفة الدينية. وليس هذا عيب نَعيبُه به إذ أن الفصل بين المعرفة العلمية المعتمدة على العقل وبين الدين لن يتمّ إلاّ في القرن الثامن عشر في أوروبا بعد ظهور "ديكارت" بقرن.

قلنا إنّ الجاحظ يورد عكس نظرية الدهريّة على لسان فريق من المعتزلة المقرّين بالمعرفة الدينية قبل المعرفة العلمية المعتمدة على العقل.

إلاّ أن الجاحظ لا يرتاح الى ذلك بل يتخذ موقفا من النّظام والدهرية في مرحلة أخيرة، شأن كل عالم يقومُ بعملية ادماج وجمع (Synthèse). ويبدو موقفه حَرِجا لانّه يحترم كثيرا شيخه النظام ولهذا السبب لا يعارضه بشدة في قوله بأنّ المسخ من باب الآيات والبرهانات والدلائل التي أعطيت للانبياء. ويذكر الجاحظ أن المسخ ثبت عند أبي اسحاق ثبوتا قبليا دينيا لانه اعتقده كمسلم وأقرّ به لانه يُعتبر "حجّة وبرهانا في وقته". وهكذا تفهم أنّ النظام صاحب الرأي مال الى نظرية الدهرية (وهم لادينيون) ولكن النظام المتكلّم رجّح كفّة الدّين. ونقرأ قول الجاحظ: "ولولا ما صح عنده (أي عند

النظام) من قول الانبياء وإجماع المسلمين على أنه (أي القلب والمسخ) قد كان، وأنه قد كان حُجَّة وبرهانا في وقته — لكان لاينكر مذهبهم (أي مذهب الدهرية المؤمنين بالتطور بمفعول البيئة) في هذا الموضـع"(1) فتَفهـمُ أنّ أبا عثمان يميل الى رأي الدّهرية. ويبدو تأييده لنظرية الدهرية بأكثر وضوح في فصل من "كتاب فخر السودان على البيضان" يقول فيه على لسان الزّنج : "والسواد والبياض إنما هما من قبل خلقة البلدة وما طبع الله عليه الماء والتربة ومن قبل قرب الشمس وبعدها وشدّة حرّها ولينها وليس ذلك من قبل مسخ ولاعقوبة ولاتشويه ولاتفضيل"(2).

لقد وجدنا عند الجاحظ مبادىء ونظريات أقرّها علم الاجتماع، كما وجدنا عنده منهجيَّة علمية في البحث متمثلة في عرض النظرية وإيراد حجج أصحاب النظرية وحجج خصومهم والقيام بعملية إدماج يكون فيها اتّخاذ الموقف. وهكذا يتجلى لنا الجاحظ المفكّر الاجتماعي في آرائه ومنهجه.

ونحن واثقون بأنّ الجَاحِظَ يُمَثِّلُ مَرْحَلَةً مِنْ مَرَاحِلِ التَّفْكِيرِ الإنْسَانِيِ وإنْ اعْتَبَرَهُ بَعْضُ الدّارِسِين مَدِينًا فِي كَثِيرٍ مِنْ أفْكَارِهِ لِلثَّقَافَةِ اليُونَانِيَّةِ. على أنَّنَا نَأبَى تَجْفِيفَ أبِي عُثْمَانَ فلا نُطْلِقُ عليه اسم العالم ونَنْسَى الاديبَ لانّه يَبْقَى مهما يكن من أمر أديبا ظَرِيفا، خَفِيفَ الرّوح يُتْحِفُنَا بِنَوَادِرِهِ وأسْلُوبِهِ..

« أحمد خـالد »

---

(1) كتاب الحيوان ج 4ص 74

(2) كتاب فخر السودان ص 82

الجلنـــــــار

شعر : نور الدين صمود

شَهِقَتْ نَجْمَــةٌ وَقَـالَتْ لاخْـرَى.. :

"أيّ سِحْرٍ مِـــنَ النُّهُــودِ اسْتَطَارَا ؟

أيّ سِرّ – أُخْتَاهُ – أرْبَى عَلَى العِطْرِ...

أغْـرَى الـوُرُودَ والازْهَـــارَا ؟"

فَأجَـابَتْ – وَضَوْؤُهَا فِي خُفُـوقٍ – :

تَـرَكَ اللهُ فِي النُّهُـودِ احْمِـرَارَا

عِنْدَ مَا كَوَّنَ الإلَـــهُ ذُرَاهَـــا

وَحَبَـاهَـا مِـنَ السَّـمَـا جُلَّنَـارَا

فَنَمَـا فِي الـربيع رُمَّانُهَـا البِكْـرُ

وَغَنَّـى مَـعَ الشَّبَـابِ... وَثَـارَا

— « ★ » —

إنّ فِـي لَمْسَـةِ الإلَـــهِ لَسِحْرًا...

يَبْعَثُ الخَيْرَ... والهَنَـا... والدَّمَـارَا

نور الدين صمود

الاغنيــة النــائحــة

قصة بقلم : لودفيغ بيخشتاين
ترجمة : الدكتور ابو العيد دودو

كان مرة ملك مات وترك زوجته ، الملكة ، وطفلين ، ولدا وبنتا ، وكانت البنت اكبر سنا مـن الولد . وذات يـوم قام بين طفلي الملك جدال حول ولاية العهد . فقال الاخ :

ــ انى امير ، وعند وجود الامراء لا يكون للاميرات ولاية العهد .

فاعترضت البنت قائلة :

ــ لقد كانت ولادتى اسبق . ولذا فانا اولى بها منك .

كان حديث الطفلين يتسم بالبراءة ، فقد سمعا هذه الكلمات من خدام القصر دون ان يفهما معناها على حقيقته . وبما ان الخلاف قد ظل قائمـا بينهما فقـد ذهبا الى امهما ووجها اليها هذا السؤال :

ــ قولى لنا ، ايتها الام الحبيبة ، من سيصير ملكا منا ، نحن الاثنين ؟

فاغتمت الام لهذا السؤال ، اذ اطلت من خلاله نواة الولع بالسلطة ، تلك النواة التى ما كان ينبغى لها ان تنمو فى وجدان طفل . واجابت ؟

ــ ولدى ! انظرا الى هذه الزهــرة وتأملاها جيدا ثم اذهبا الى الغابة وابحثا عنها . فمن وجدها منكما قبل الاخر فانه سيصير ملكا ذات يوم .

اقبل الطفلان على الزهرة يتأملانها باهتمام وشغف بالغين . كانت ساقهـا ممشوقة كالصولجان وتنتهى بزنبقة نصف متفتحة .

اخذ الطفلان طريقهما الى الغابة ، دونما سوء نية ، وبدأ بالبحث عن الزهرة. وسرعان ما ابتعدا عن بعضهما بعض بحيث لم يعد احـدهما يـرى الآخـر . وجدت الاميرة الزهرة قبل اخيها ففرحت بذلك اشد الفرح ومضت تبحث عنه غير انها لم تجده . فقالت لنفسها : « سياتى بعـد حين . لسوف انتظـره هنا . » ثم اضطجعت فوق العشب الناعم تحت شجرة وارفة الظلال . وكـان الهدوء شاملا فى الغابة ، ما عدا طنين النحل والخنافس . وقريبا منهـا كانت

ثمة عين يترقرق ماؤها فى هدوء • اما السمـاء فكانت شديدة الزرقة ، ترنو الى الاعشاب الخضراء عبر رؤوس الاشجار المخضرة •

كانت الاميرة الصغيرة قد مسكت الزهرة بيدهـا ، وبما ان الصمت كان سائدا وهى تعبة فقد نامت على بركة الله • بعد لحظة وجيزة وصل اخوها الى المكان الذى نامت فيه • ولم يكن قد وجد الزهرة التى بحث عنها • وهناك راى اخته مضطجعة ، غارقة فى نوم لذيذ ، والزهرة فى يدها •

فى هذه اللحظة برز من الغابة شبح رهيب مكفهـر الملامـح وهمس فى اذن الامير : « كيف يجوز ان تسود اختك على المملكة ؟ يجب ان تصير انت ملكا • خذ الزهرة منها وحاول ان تجعل نومها نوما ابديا • »

تصاعدت فى نفس الامير افكار قاتمة ، فاصغى الى مغريات الشبح الخبيث • وفكر : « لا بد ان اصير ملكا ، انا ! ولا يجـوز ان تعتلى العـرش اختى • فالافضل لى ان اقتلها وآخذ الزهرة لنفسى واعود بها الى البيت لاصير ملكا •»

اواه ! لقد حدث ذلك كما يقول المثل : تفكير يعقبـه تنفيذ • قتـل الامير اخته البريئة ، وهى نائمة ، ودفنها فى التراب وغطى التراب بالاعشاب ، دون ان يسمع احد بهذا العمل الخبيث • وعند رجوعـه الى البيت اخبر بان اختـه ابتعدت عنه فى الغابة وسلكت طريقها الخاصة ، وحين وجد الزهرة رجع الى البيت ، ظنا منه بانها هى الاخرى قد عادت قبله الى البيت •

مرت سنون كثيرة وحزن الملكة على ابنتها المفقودة لا ينقطع • كـانت قـد بعثت من يبحث عنها فى الغابة ، ولكن بدون جدوى • فتمنتلنفسها الموت ، لانها هى التى ارسلت ابنتها الغالية الى الغابـة • اما الابن فقد توج حين بلغ سن الرشد !

بعد عدة سنوات مر بتلك الغابة راع شاب كان يحرس قطيعـه ويجـرف ، سأما ، بمسحاته الحشيش لمجرد قضاء الوقت • وفجأة وبطريق الصدفة نبش عظما من عظام الاميرة المقتولة ، كان نظيفا ، ناصعا كالثلج • فاحـدث الفتى الراعى عدة ثقوب فى العظم فصار شبابة صغيرة • ثم تنـاولها بيـن شفتيه ونفخ • عندها انبجست انغام نائحة ، اواه ، حزينة حزنا لا نهاية له • وكانت تلك الانغام منسجمة كانها اغانى طفل باك ، بحيث بكى الفتى الـراعى نفسه ولم يستطع ان يكف عن العزف • وكانت الاغنية النائحة :

يا راعى ، يا راعى ،

انت تزمر على عظمى

قتلنى اخى فى الغابة

تناول من يدى

الزهرة التى وجدتها انا

وادعى انها له ٠

ضربنى وانا نائمة ، ضربنى بشدة ٠

حفر قبرا ودفننى ها هنا ٠

اخى – فى رابعة النهار ٠

لن يعلم ذلك

الا من فمك

فانا اشكوه الى الله والبشر ٠

كانت الاغنية هى هى تنطلق من الشبابة العظمية دوما وبلا انقطاع ٠ وكان الفتى الراعى يعزف بلا استمرار ٠ وفى كل مرة كانت الدموع الصافية تنسح فوق وجنتيه ٠

حين كان صدى الاغنية النائحة يتردد فى جنبات الغابة ، كانت الطيور الصغيرة كلها حزينة بكماء ، تحنى رؤوسها وترخى اجنحتها وتلوذ بالصمت، حتى اسراب النحل والخنافس لم تعد تطن ، وخرير العين الثرثارة نفسه لم يعد يسمع – لقد ساد صمت بليغ ، تماما كصمت الاموات ٠

حين ترددت انغام الاغنية النائحة فى المرج احنت حيوانات المرعى رؤوسها فى الم وكآبة ، دون ان يصدر صوت عن أحد منها ، حتى الكلب انقطع عن النباح والوثب فى مرح هنا وهناك كما كانت عادته ، فانحنى يعوى بصوت خافت ٠ لقد كان فى الاغنية شيء يمزق قلوب الخلائق جمعاء ٠ ومع ذلك لم يتعب الفتى الراعى من عزف هذه الاغنية الى ان مر بالسياج ذات يوم فارس ٠ فسمع الاغنية واحس فى التو بعينيه تقطران فتوقف ٠ وبالغ فى الالحاح على الفتى الراعى الى ان باع له الشبابة الصغيرة ٠ ومنذ ذلك الحين اخذ الفارس يسبح فى البلاد ويطوى المسافات ، عازفا تلك الاغنية التى ابكت جميع الحلق٠

وهكذا وصل ايضا الى القصر ، حيث كان الملك الشاب جالسا فوق عرشه وكانت الاغنية تتحدث عنه وتشكوه ٠ وكانت الملكة – الام العجوز – لا تزال بقيد الحياة ٠ فسمعت باخبار الفارس الذى يعزف اغنية تهتز لها القلوب وتمتلىء النفوس غما وهما وحسرة ٠

وبما ان كآبة الملكة العجوز لم تفتر ابدا فقد قالت : « اى شيء فى العالم

يمكن ان يكون اشد حزنا واكثر مرارة منى ؟ ليتنى اعرف شيئا من ذلك ! ان اغنية العازف النائحة لن تزيد فى حزنى • دعوه يأتى على أية حال • »
فأقبل العازف الفارس ونفخ :

يا فارس ، يا فارس

انت تزمر على عظمى

قتلنى اخى فى الغابة •

ولم تكد الملكة العجوز تسمع كلمات الاغنية حتى انهمرت الدموع من مقلتيها وحين تواصل الرنين :

اخذ من يدى

الزهرة التى وجدتها انا

وادعى انها له •

صرخت الملكة صرخة مدوية وانهدت فى اغماء عميق • ففزع العازف لذلك وعن له ان ينهى العزف ، ولكنه لم يستطع •• فالاغنية كانت تصر ، كلما ابتدىء بعزفها ، على ان يتواصل العزف حتى النهاية ــ ، وحين تردد المقطع الاخير منها ، بشكوى عميقة ، استيقظت الملكة من اغمائها وصرخت : « الى ، الى بالشبابة ! بكل كنوزى ــ الى بهذه الشبابة ! »

غير ان العازف الفارس قدم الشبابة العظمية للملكة وقال انه لا يطمع فى الكنوز ــ لم يأخذ شيئا وواصل سفرته •

اختفت الملكة فى اعماق غرفها واخذت تعزف الاغنية وتبكى الى ان كادت دموعها تنقطع • وفى غضون ذلك كله كان الملك قد اصبح قويا مشهورا ، ولكنه لم ينس ، على الرغم من هذا ، فعلته الشنعاء مع اخته وقتله اياها غدرا وخيانة • فكان يقيم الحفلات فى قصره فتتعالى الاصوات والالحان ثملى لتنسيه ذلك الصوت الخبيث الذى يعبث بقلبه ويدميه •

حدث ذات يوم ان قرر اقامة حفلة دعا اليها عددا كبيرا من المغنين والعازفين والضيوف • وكانت عادته أن يدعو امه فى كل مرة ، غير انها لم تشترك قط فى حفلاته ، لان حزن قلبها ، كما كانت تكتب اليه معتذرة ، وكآبة ضميرها يمنعانها من الحضور • وحين وصلتها الدعوة فى هذه المرة اخبرت ابنها بانها ستحضر الحفلة • فعجب الملك لذلك اشد العجب ، ولم

يعرف هل يفرح بذلك ام لا ؟

ولما اجتمع الضيوف كلهم بثيابهم المزخرفة واستعد المغنون والعازفون ودخلت الحاشية الى القاعة الرائعة النمنمة استبدت بالجميع دهشة اوشكت ان تكون خوفا • لقد كانت الملكة ترتدى ثوبا اسود طويلا ينجر وراءها وقناع الارامل • وما هى الا لحظة حتى ارتفعت الاهازيج من العيدان والدفوف والشبابات والناى والرباب وبدأت المجموعة ترتل اغنية تمجد الملك العظيم • فماذا فعلت الملكة ؟ لم لم تجلس بل بقيت واقفة فى جمود كتمثال من مرمر وما هذا القضيب التى امسكت به ؟ ان هذا ليس قضيبا ، بل هو ساق ، ولكن لم ترفع الساق الى فمها يا ترى ؟ لماذا تمسك بها كما يمسك العازفون بشباباتهم ؟

انصت ! نغم ـ وتصمت آلات الطرب جميعها ـ لحن آخر ، فيصمت فم كل مغن •

وجلس الملك هناك فى رعب ، ودبيب القرف الرهيب يجتاح كيانه ، ينظر الى امه • وكانت ابصار الجميع عالقة بالملكة العجوز • فتعزف الملكة على الشبابة الرائعة :

امى ، يا امى !

انت تعزفين على عظمى !

وعندئذ تهتز القلوب جميعها وتنفطر ، ولا تبقى عين واحدة جافة • الحاشية والضيوف ، المغنون والعازفون كلهم ينتحبون •

اخى قتلنى فى الغابة

فيصرخ الملك « اواه » ويسقط الصولجان من يده ويتشبث بتاجه •

اخذ من يدى

الزهرة التى وجدتها انا

وادعى انها له •

حينئذ يسقط التاج من فوق راس الملك ويقع فوق الارضية المرمرية وينكسر ويسمع له صوت كانه طقطقة جمجمة وقعت على المرمر •

ضربنى فى النوم ، ضربنى بشدة ـ

حفر قبرا ودفننى فى الغابة ـ

وهنا سقط الملك نفسه من على العرش ووقع على قفاه واخذ يبكى وينوح •

اخي ــ في رابعة النهار

فالتفت الملك وهو يعاني سكرات الموت وصرخ : « كفى ! يا اماه ! كفى ! »

ولكن الملكة العجوز لم تستطع ان تنهى الاغنية بنفسها • فتواصل الرنين :

لن يعلم ذلك

الا من فمك

فانا اشكوه الى الله والبشر •

فهرب الضيوف والعازفون ، المغنون والحاشية ــ هربوا جميعا عبر ابواب القاعة ، ــ وذلك حين رنت الكلمات رهيبة مفتتة ، مع ان صوتها لم يكن عاليا ، ــ وداسوا باقدامهم آلات الطرب والكراسى فتكسر الكثير منها وانطفات الشمعات ما عدا اثنتين ــ حين انتهت الاغنية لم يبق فى القاعة الكبيرة غير الملكة العجوز ، فى ثوب الحداد ، وابنها الذى كان يعانى سكرات الموت فى ثياب الملك المتنوعة الزخرفة • فركعت قرب ابنها الطريح فوق الارضية ومسكت راسه بين يديها وذرفت عليه دموعا حارة • عندئذ خبت نار احدى الشمعتين المشتعلتين •

ظلت الملكة تبكى وتصلى حتى منتصف الليل • اطفأت بعد ذلك الشمعة وكسرت الشبابة لكيلا تسمع بعد الاغنية النائحة •

ترجمة ابو العيد دودو

اصلاح خطأ

حصل كسر عروضى فى الشطر الثانى من البيت التاسع والثلاثين من قصيد ــ محرابك ــ للشاعر الهادى نعمان المنشور بالعدد الثانى من ــ الفكر ــ لهذه السنة ــ وصوابه ان يقرأ هكذا :

كأننى ما تغنيت الهوى طربا

ولا تملى لديك الحسن ولهان

كما أنه وضعت همزة ــ سهوا فى البيت الاول والبيت الاخير من القصيد فى كلمة ــ الحان ــ وصوابهما ــ الحان ــ همزة وصل لا همزة قطع اى الحانة ــ لا الحان ــ من الغناء ــ فليعذرنا قرائنا الكرام

عـابـــــرة

شعر : جعفر مـاجد

مَرَرْتِ سَرِيعًا كَهَبِّ الْعَبِيــرْ وَخَلَّفْتِ شَيْئًا.. كَبِيرًا.. كَبِيرْ
وَكُنْتُ أَجُرُّ وَرَائِي وُجُــودِي وَأَمْضغُ طَعْمَ الفَرَاغِ الْمَرِيرْ
فَأَغْرَيْتِ قَلْبًا جَرِيحَ الامَــانِـي وَدَغْدَغْتِهِ مِثْلَ لَحْنٍ مُثِيـرْ
وَمَـزَقْتِ عَنِّي كَثِيفَ الغُيُــومِ فَـأَحْسَسْتُ أَنِّي جَنَاحٌ يَطِيــرْ

* * *

سَعَيْتِ إِلَيَّ بِخَطْوٍ رَشِيـــقٍ وَقَدٍّ كَغُصْنٍ ثَنَـاهُ النَّغَـمْ
وَحَـرَّكْتِ ثَـوْبًا شَهِيَّ الثِّمَـارِ تَهُبُّ عَلَيْهِ رِيَـاحُ النَّهَـــمْ
تَثَنَّى عَلَى خِصْرِكِ الْمُسْتَـدِيـرِ كَمَا لَوْطَوَاهُ عَلَيْكِ الأَلَـمْ
يَخَافُ إِذَا مَاتَشَيْتِ الْهُــرُوبَ فَيَهْتَزُّ قَبْلَ اهْتِزَازِ الْقَـدَمْ

* * *

مَضَيْتِ وَلَمْ تَعْرِفِي مِنْ جُنُونِي سِوَى نَظَرَاتٍ تَهَاوَتْ عَلَيْكِ
لِتَنْهَلَ مِنْ شَفَتَيْكِ ابْتِسَامًا وَتَبْكِي حِيَاءً عَلَى حَلْمَتَيْكِ
وَكَانَتْ دِمَائِي دُخَانَ لَهِيبٍ يَـذُوبُ احْمِرَارًا عَلَى وَجْنَتَيْكِ
وَيُضْفِي عَلَيَّ ظِلاَلَ الْحَيَــاةِ أَيَا جَنَّتِـي.. هَـلْ أَعُودُ إِلَيْكِ

جعفر مـاجد

اللاقصة في الادب القصصي الاروبي الحديث

بقلم : مصطفى الفارسي

كنا قدمنا في مقال سابق(1) عرضا مجملا لما طرأ على الادب القصصي الحديث في فرنسا خاصة من نزعات واتجاهات أدت الى خلق ادب جديد الى جانب الادب القصصي التقليدي. وميزة هذا الادب الجديد هي النفي، نفي المقاييس المعروفة والاركان الاساسية التي خضعت لها الى حدّ الآن الرواية القصصية. بحيث اصبحنا اليوم أمام طريقتين إن لم نقل أمام أدب ذي وجهين : الطريقة التقليدية ومازال لها انصار وقراء والطريقة الثورية الحديثة ولها اتباعها وقراؤها أيضا. وللمدرسة الحديثة نظريات تعتمدها نجدها على لسان الكاتب الوجودي المعروف جان بول سارتر من جهة وفيما كتب حول هذه النزعة الكاتب روب قريلاي (Robbe Grillet) والكاتب بيطور (Butor) وسنرجع الى هذه المصادر المعتمدة في محاولتنا هذه لتحليل المقاييس والاركان الجديدة التي ستخضع لها الرواية القصصية الحديثة. وأهم ما أتانا من هذه النظريات ـ في رأينا ـ ما نعته روب قريلاي بأنه الشرط الاولي وبأنه الطريقة المثلى التي يتعين على المؤلف الناشىء ان يحترمها في كتاباته. وهذه الطريقة المثلى عبارة عن جملة من المقاييس مطبوعة كلها بطابع النفي. ولاغرابة في هذا البتة فكل نزعة جديدة في الفن لاتحتل بالنسبة الى النزعات التي سبقتها محل الرسوخ والقوة الا اذا اقيمت على نفي ما سبق ودعت الى الثورة على التقاليد الموروثة. ونلاحظ هنا أن كل ما يرمي به روب قريلاي عرض الحائط وكل ما ينفيه ويتنكر له هو في الواقع العناصر الاساسية التي كانت ومازالت ترتكز عليها القصة في مفهومها المعروف.

يقول قريلاي ان مؤلف الرواية القصصية الناجحة هو الذي لا يجنح في مؤلفه الى الحدث والحكاية والقصة أو قل ما شئت مما كانت ترتكز عليه القصة التقليدية. فالرواية القصصية ليست مجرد سرد حكاية للقارىء وليست

(1) راجع العدد الثاني ـ الفكر ـ السنة الثامنة

أذن مسرحا لشخصيات معينة. فالكائنات الحية التي يثبتها المؤلف في قصته يجب الا تؤخذعلى انها شخصيات فاعلة بل يجب ان يقع تصويرها كغيرها من الاشياء التي تحيط بها فهي اشياء مفعول بها لافاعلة. وليتمكن المؤلف من هذا المسخ ويقوم بعملية قلب الكائنات الحية الى أشياء جامدة يتعين عليه ان ينفي عن قصته كل تحليل نفساني، وبهذه الصورة تكون عناصر القصة الحديثة منقسمة الى قسمين رئيسيين : هناك اولا الاشياء بمعناها الواسع. فالكل في نظر المتكلم جملة من الاشياء بما في ذلك الكائنات الحية وعلى نفس المستوى. ثم هناك الرواية نفسها. فليست الرواية القصصية عبارة عن حكاية مغامرات شخصية او مجموعة من الشخصيات فهي حتما مغامرة القصة نفسها وهي تكتمل وتصبح شيئا فشيئا قصة تكتب وتروى. اي مغامرة القصة التي تكتب بالنسبة للمؤلف والقصة التي تقرأ بالنسبة للقارىء. بحيث يصبح الادب القصصي عملا بهذه المحرمات الادبية وهذه الاوامر وهذه المجموعة من أدوات النفي التي يقدمها روب قريلاي، يصبح الادب القصصي اذن فنا يعتمد العين قبل كل شيء. فهو ادب تصويري مدقق لكنه محدود، حدوده ما تصل اليه العين مع العلم ان ما تصل اليه العين هو شيء جامد ليس للكاتب الحق في تحليله باسم علم النفس واعتمادا على قواعده وأصوله. "فانا اذن امام أشياء لا يمكنني أن أحلل حركاتها أو خلجات صدرها أو الكلمات التي تصدر من أفواهها".

ويتابع روب قريلاي بسط تعليماته في دقة ومتانة ومنطق كبير فيصل بنا الى نظريات بالغة في الشدة والصرامة فهو يدعونا الى ان يكون تصويرنا للاشياء خاليا من كل معنى. فيقول : "بأي حق نلصق النعوت بالاشياء ؟ فهذه شمس قاسية وتلك ليلة هادئة وهذه سحب مهددة غاضبة وتلك عين حالمة وذاك وجه عابس قطوب. فالشيء لا يعدو ان يكون اداة فهو هو وليس الا". فهو في وجوده وفي حضوره. وجود ينعته روب قريلاي في مجال آخر بالبلادة او التعنت مستعملا، – كما يُلاحَظ – ليدعم نظريته ويحدّدها بكامل الوضوح، نعتا من النعوت التي يتهجم عليها ويدعو الى تحاشيها والابتعاد عنها. وهذه القواعد التي يحددها روب قريلاي لاتنطبق في الواقع على مجموعة المؤلفات التي تعتبر داخلة في نطاق الانتاج القصصي الحديث لكنها تمثل أهم العناصر التي تتميَّز بها النزعة الجديدة، وهي عناصر ضبطها قبل روب قريلاي كتاب

مشهورون لكن ليس بنفس المنطق وبنفس الدقة التي بسطها بها روب ڤ يلاي فهو اول من صور جمود عالم الاشياء وخلو هذا العالم من المعاني خاصة في كتابيه: "المتلصص" و"الغيرة" اذ وفق في التعبير على طريقة خاصة ينظر بها الى الكون والى عالم الاشياء نظرة لاتتخطى ما تصل اليه العين ولاتحاول ان تصل الى ما وراء ذلك. فهو بحق زعيم "مدرسة النظر" التي ينتمي اليها الى جانب روب قريلاي نفسه تلميذه وابنه الروحي (Claude Olier) ولو ان بين الكاتبين بونا شاسعا وفروقا لا تخفى على الناقد أو المطالع الفطن، فروب قريلاي يمتاز على تلميذه بالصنعة والمتانة فطرقه وأساليبه التي تعتمد النظر والعين تستطيع وحدها ان تضفي على عالمه جلالا وعلى الاشياء التي يصورها دسامة تبهر القارىء وتجعله يشعر بالرغم منه بعالم ذي حضور سميك ثقيل جامد. عالم منغلق على نفسه مكبوت اصم، لكن اذا استثنينا عالم الاشياء فاننا نلاحظ ان طرق روب قريلاي تقارب طرق غيره من المؤلفين المحدثين وتتصل بهذه الطرق اتصالا ربما كون وحدة نسبية. فكل هؤلاء المؤلفين يعملون على حسب تعبيرجان بول سارتر في جو الاشياء المألوفة وفي عالم اللاواقعية.

ذلك أنهم بمجرد ما يصورون الكائنات الحية يجدون أنفسهم أمام عقبة هائلة وهي نفي الشخصية من هذه الكائنات وتجريدها من الشعور ومن الخلجات النفسية. فاذا وضعوا حوارا في القصة وجعلوا هذه الكائنات تتكلم فانهم بذلك يستمعون إلى الكلمات ولا يمكن أن تكون كل هذه الكلمات خالية من المعنى. فكل كلمة في الواقع لها معنى وكل كلمة تخرج عن نطاق الترديد الآلي والابتذال يصبح لها مفهوم خاص وتستطيع بذلك أن تعطينا فكرة عن الناطق بها في حدود نفسيته الخاصة به والتي تميزه عن غيره من الكائنات وذلك مهما أراد المؤلف ان ينفي عن الكائن كل عاطفة ومهما ابتعد عن تحليل تلك العاطفة. فما يمنع القارىء من القيام بهذا التحليل ؟ لذلك يجنح هؤلاء المؤلفون الى طريقة تخرجهم نسبيا من هذا المأزق ذلك انهم يعمدون الى الحوار المبتذل المنحل حوار متركب من كلمات جوفاء لاارتباط بينها ولاتكامل ولاترتيب كأن تقول الشخصية الاولى :

— انه ذهب . النور ساطع .

فتجيب الشخصية الثانيـــة :

ـ ماذا أكلت البارحة ؟
فنسمع الشخصية الاولى تقـول :
ـ هـل بالبيت مـا يشرب ؟
الى غير ذلك من الكلمات المتشتتة التي يقذف بها الكاتب في أفواه الكائنات الحية لا لشيء سوى لمجرد الكلام. وقد نجحت المؤلفة المشهورة (Nathalie Sarraute) ايما نجاح في تنسيق هذه الكلمات الجافة التي لا معنى لها والتي لاترمز الى شيء. ففي كتابها "Le Planétorium" او الوعاء الكوكبي تمثل لنا شابا شديد الشغف بالكتابة والتأليف الى حد الجنون وامرأة كاتبة مرموقة مشهورة. ويجرى بين الشاب والمرأة حوار غريب لايعطينا ولو فكرة سطحية عن الشخصيتين اللتين تقومان بذلك الحوار فالجو جو ابتذال والشاب والمرأة يرددان كلمات جوفاء خالية من كل معنى عميق. ومع هذا فلا يمكننا أن نجزم بان ذلك الشاب احمق أو تلك المرأة معتوهة أو مجنونة. وليس هذا في الواقع ما يريده مؤلف القصة. فالحوار الذي يجرى بين الشاب والمرأة يجعلنا في حيرة من أمرهما إنهما ليسا أحمقين وليسا فطنين. فهما في الحقيقة غير موجودين اذ ان وجودهما نسبي لاتصاله المباشر بغيرهم وبالعالم الذي ينقلان عنه تلك الكلمات الجوفاء التي يرددانها بدون انقطاع والقارىء أمام كل هذا في حيرة وهو في نفس موقف المتفرج ازاء رواية يقوم بأدوارها على الركح ممثلون من الهواة فكل ما ينطقون به يشعر بعدم الكمال وبالارتجال أو بعدم الحفظ، وكذلك شخصيات (Nathalie Sarraute) فهي لاواقعية أو ان شئت لاحقيقية (irréels) "ويقول ساتر في مقدمة كتاب (Nathalie Sarraute) الذي بعنوان "Portrait d'un étranger" "صورة غريب : ان المؤلفة تأبى أن تجنح الى "كذب الروائيين" والى سوء نية مؤلفي القصة التقليدية وهذا الكذب وسوء النية هما اللذان يجعلان المؤلف يتحدث عن شخصياته كما لو كان في آن واحد أمام هذه الشخصيات من جهة وداخلها وفي كيانها وجسدها من جهة أخرى بحيث يتاح له لا أن يكتب "فلان يقول" فحسب بل "فلان يعتقد انه. او فلان يشعر انه" و(Nathalie Sarraute)، لا تستبيح لنفسها هذا الكذب لذلك فهي لاتتداخل في شؤون شخصياتها وجو قصصها هو جو اللاحقيقة في أسمى وأمتن مظاهرها وتجردها وحيادها. والغريب في كل هذا هو ان هذا الادب الذي ينفي عنه جميع اصول الادب المتداول لاينفي عنه ميزة الادب. فهو غني رغم المحرمات التي يضيق بها على نفسه وشخصياته وان تكلمت بغير كلام وعبرت عن عدم وجود مكين فانها رغم كل ذلك تعيش امام أعيننا مأساة حقيقية تؤثر فينا مباشرة وكأنها تستميل قلوبنا بالرغم منا.

بين ابن حـــــزم وابن خـلـــــدون

بقلم : محمد محفوظ

كان ابن حزم اول عالـم نقد اسفار التوراة والأناجيل (ما يسمى بالعهد القديم والعهد الجديد) نقدا علميا عقليا قبل ان تظهر بواكير هذه البحوث بـاوربـا فـي القرن السابع عشر على يد ريشار سيمون Richard Simon (1678) وعلى يد استروك Astruc في القرن 18 م الذى كانت لدراسته فضيلة السبق في الكشف عن المصادر الاولى لاسفار التوراة الخمسة، ثم تلاهما يـوليـوس ولـهـزن julius Wellhausen الـذي استفـاد من بحوث سابقيه، وكانت كتاباته وبحوثه مرجعا للعلماء من بعده.

وقد تفطن لـما امتاز به منهج ابن حزم عن بقية مناهج علماء الاسلام في مجادلة اهل الكتاب الشيخ عبد الله الترجمان(1) في كتابه "تحفة الاريب، في الرد على اهل الصليب(2)" اذ يقول : "... وجدت تصانيف علمائنا الاسلاميين – رضي الله عنهم – محتوية على ما لا مزيد عليه، الا انهم – رحمهم الله – قد سلكوا في معظم احتجاجهم على اهل الكتاب من النصارى واليهود مسالك مقتضيات المعقول الا الحافظ (ابي) محمد بن حزم – رحمه الله – فانه قد رد عليهم بالمعقول والمنقول، غير انه لم يرد عليهم بمقتضى المنقول الا في النادر من المسائل". (3)

---

(1) اصله من مدينة ميورقة، وكان قسيسا بها، قدم الى تونس في زمن ابي العباس احمد الحفصي وعمره 35 سنة، فأسلم، واولاه احمد الحفصي قيادة البحر بالديوان، وبعد اتقانه للعربية صار يترجم ما يرد من الوثائق بلسان الجنويين والفرنسيين وغيرهم، وفي زمن السلطان أبي فارس عبد العزيز بن ابي العباس احمد الحفصي اضاف اليه ولاية دار المختص.

(2) الفه بتونس سنة 823 هـ في زمن ابي فارس عبد العزيز الحفصي، وطبع بمطبعة التمدن بمصر سنة 1904 م ، ورايت نسخة خطية من الكتاب عنوانها : "تحفة الاريب"

(3) خطبة "عنوان الاريب" ص 2.

والسبب – على ما يبدو – في ظهور هذا الاتجاه العلمي النقدي في وقت مبكر بالاندلس تركيب المجتمع الاندلسي، المتألف من عناصر اسلامية ومسيحية، تأثرت هذه الاخيرة بحضارة المسلمين، لكنها بقيت متمسكة بدينها، ونشأ عن المجاورة والاحتكاك الجدل والنقاش في مسائل العقائد مما دعا الى ان ينبرى علماء الفريقين للرد على بعضهما بعض.

وأتي من بعد ابن حزم عالم اندلسي آخر هو احمد بن عبد الصمد بن ابي عَبيدة – بفتح العين – الانصاري الخزرجي، من تلامذة القاضي ابي بكر بن العربي، المتوفى بفاس سنة 582 هـ، 1187 م، الف كتابا في الرد على بعض القسيسين بطليطلة سماه "مقامع الصلبان في الرد على عبدة الاوثان"(4) كان متأثرا فيه بابن حزم من ناحية منهجه النقدي.

ومنهج ابن حزم في نقده يتمثل في معارضة النصوص بعضها ببعض، وبيان ما فيها من اضطراب وتناقض واختلاف، ورد الروايات التاريخية التي تصادم معطيات العلوم – على ما وصلت اليه في عصره – من هندسة وجغرافيا وعلم المواليد الثلاثة (الحيوان والنبات والمعادن)، وبالجملة كل ما يتعارض مع القوانين اليقينية الثابتة المطردة التي يسير العالم والمجتمع الانساني حسب مقتضياتها، يكون عند ابن حزم كذبا ومحالا من باب ما يتسلى به العجائز من الخرافات والاسمار عند غزلهن للصوف.

أمثلة من نقده: بعد ان حكى ما ورد في سفر التكوين (الاصحاح 15، الآية 13) من تنبؤ ابراهيم ببقاء اليهود مدة 400 سنة بمصر، ووصف جامع اسفار التوراة باوصاف جرى بها قلمه كثيرا فيها اقذاع امسكنا عن ذكرها، قال: "تكلف املاء ما لم يقم بحفظه جاهل مع ذلك مظلم الجهل بالهيئة وصفة الارض والحساب". (5)

وبعد ان نقل انه كان يوضع في قصر سليمان – ع – كل يوم مائة مائدة

(4) هذا هو عنوان الكتاب في النسخة الموجودة بالمكتبة الاحمدية بتونس عدد 2063 "وفي الديباج" ص 51 "مقامع هامات الصلبان، ورواتع رياض الايمان"، وفي "نيل الابتهاج" ص 59 "مقامع الصلبان"، وفي "تكملة الصلة" لابن الآبّار، ط. مصر 85/1 "مقامع الصلبان، ومراتع رياض الايمان".

(5) الفصل في الملل والنحل، ط. مصر 1317 هـ، 128/1.

ذهب على كل مائدة مائة صفحة ذهب، وثلاثمائة طبق ذهب، على كل طبق ثلاثمائة كاس ذهب، قال : "فاعجبوا لهذه الكذبات الباردة، واعلموا ان الذي عملها كان ثقيل الذهن في الحساب، مقصرا في علم المساحة، لانــه لايمكن أن يكون قطر دائرة الصفحة أقل من شبر، وان لم تكن كذلك فهي صحيفة لا صفحة طعام ملك، فوجب ضرورة ان تكون مساحة كل مائدة من تلك الموائد عشرة اشبار في مثلها لاأقل، سوى حاشيتها وارجلها.

واعلموا ان مائدة من ذهب هذه صفتها لايمكن البتة ان يحركها الا فيل، لان الذهب ارزن الاجسام واثقلها. ولايمكن البتة ان يكون في كل مائدة من تلك الموائد أقل من ثلاثة آلاف رطل ذهب، فمن يرفعها ومن يضعهـا ومن يغسلها ومن يمسحها ومن يديرها ؟! فهذا الذهب كله، وذا الاطباق من اين ؟!"(6).

ومن الطريف ان المعجزات عند ابن حزم لاتصادم النواميس الثابتـة في الكون، فاذا صادمتها دخلت في حد الكذب ؛ قال : ــ عقب الكلام السابق عن معجزات سليمان الواردة في القرآن من اتيانه ملكا لا ينبغي لاحد من بعده، وتسخير الريح له، وعلمه بمنطق الطير الخ... "وبين الامرين فرق واضح، وهو ان الذي ذكرت مما نصدق به نحن، هو من المعجزات التي تأتي بمثلها الانبياء ــ ع ــ داخل كله تحت الممكن في بنية العالم، والذي ذكروه هو خارج عن هذا الباب داخل في حد الكذب، والامتناع في بنية العالم(7)". سقت هذه المقتبسات من كلام ابن حزم، وهي قليل من كثير، للتدليل على منهجه في النقد، واعطاء صورة واضحة عن غزارة تفكيره وقوة عقله، وانه كان اول عالم عربي وضع اسسا بينة لنقد الرواية التاريخية مستعينا بقوانين مختلف العلوم وقواعدها لبيان ما في هذه الروايات من زيف وبهرج، وانه يتعين تفنيدها ورفضها عند مصادمتها للقوانين العلمية اليقينية الثابتة التي لايرقى اليها شك البتة. وجاء ابن خلدون من بعد ابن حزم باكثر من ثلاثة قرون واستفاد من كتاباته ومنهجه النقدي، ولكنه اهمل الاشارة الى الاستفادة من كتاب ابن حزم "الفصل" جريا على عادته في عدم ذكر المصادر التي يستقي منها. ويبدو تفوق ابن خلدون في عقليته الفلسفية القديرة على التجريد والتعميم واستنباط القوانين والقواعد العامـة الصالحة لنقد الروايـة التاريخية،

(6) المصدر السالف 1/219 ــ 220 .

(7) المصدر السالف 1/220

غير قاصر نقده على بعض المأثورات التاريخية المبثوثة في اسفار العهدين القديم والجديد.

هذا هو الفرق بينه وبين ابن حزم، ولكن لاينكر فضل المتقدم، وما كان له من جهد في تمهيد الطريق، والقاء الاضواء الكاشفة على مسالك وشعب كانت مهجورة من قبل.

ان النغمة التي سمعنا ترديدها من ابن حزم من مثل قوله : "داخل كله تحت بنية العالم، داخل في جو الكذب والامتناع في بنية العالم الخ..." والاستناد الى نتائج العلوم المختلفة لنقد الرواية التاريخية نجد شبيهه في "مقدمة" ابن خلدون.

وهناك فارق في الاسلوب بين ابن حزم وابن خلدون، ومرده الى تباين مزاجهما الشخصي، فابن حزم عنيف في نقده، طويل اللسان سليطه يصل به أحيانا الى البذاءة والاقذاع، وابن خلدون ريض الطبع هادىء المزاج ينقد في اتزان، الحجة تتبعها الحجة، والشبهة ينقضها البرهان، بدون استعانة بمؤثرات عاطفية من سخرية وتهكم واقذاع كما هو شأن ابن حزم.

مقارنة بين ابن حزم وابن خلدون

عندما تحدث ابن خلدون في مقدمة "المقدمة" عن "فضل علم التاريخ" وتحقيق مذاهبه، والالماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط والاوهام، وذكر شيء من اسبابها " بين "ان الاخبار اذا اعتمد فيها على مجرد النقل بدون تحكيم لاصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والاحوال في الاجتماع الانساني، وبدون قياس الغائب منها على الشاهد، والحاضر بالذاهب، فربما لم يؤمن فيها من العثور، ومزلة القدم، والحيد عن جادة الصدق". وهذا الاعتماد على مجرد النقل ناشىء عن عدم معرفة القوانين الاجتماعية التي تتحكم في سير المجتمعات قد أوقع المؤرخين وايمة النقل في الاغلاط والاوهام "لاسيما في احصاء الاعداد من الاموال والعساكر اذا عرضت في الحكايات، اذ هي مظنة الكذب، ومطية الهذر، ولا بد من ردها الى الاصول، وعرضها على القواعد".

ثم ذكر ما نقله المسعودي (8) وكثير من المؤرخين عن جيوش بني اسرائيل، وان موسى ــ ع ــ احصاهم في التيه فكانوا ستمائة الف أو يزيدون،

(8) التنبيه والاشراف، ط. الصاوي، ص 170، ومروج الذهب، ط. محي الدين عبد الحميد، 49/1.

بعد ان أجاز من يطيق حمل السلاح من ابن عشرين فما فوقها.(9)
وحجج ابن خلدون في تفنيد هذه الحكاية تتلخص فيما يلي :

1) الذهول عن معرفة مساحة مصر والشام، وضيقها عن ايواء هذا العدد من الجيوش.

2) لكل دولة من الدول "حصة من الحامية تتسع لها، وتقوم بوظائفها، وتضيق عما فوقها ؛ تشهد بذلك العوائد المعروفة، والاحوال المألوفة".

3) مثل هذا العدد من الجيوش "يبعد ان يقع بينها زحف او قتال لضيق ساحة الارض عنها وبعدها اذا اصطفت عن مدى البصر مرتين اوثلاث او أزيد، فكيف يقتتل هذان الفريقان، او تكون غلبة احد الصفين، وشيء من جوانبه لا يشعر بالجانب الآخر، فالحاضر يشهدلذلك، والماضي أشبه من الآتي بالماءبالماء".

4) ان "ملك الفرس ودولتهم اعظم من ملك بني اسرائيل بكثير... ومع ذلك لم تبلغ جيوش الفرس قط مثل هذا العدد ولا قريباً منه".

5) لو "بلغ بنو اسرائيل مثل هذا العدد لاتسع نطاق ملكهم، وانفسح مدى دولتهم، فان العمالات والممالك على نسبة الحامية والقبيل القائمين بها في قلتها وكثرتها..."

6) ان بني موسى واسرائيل اربعة آباء، والمدة بينهما – على ما نقله المسعودي – اذ قال : دخل اسرائيل مصر مع ولده الاسباط واولادهم حين أتوا الى يوسف سبعين نفسا ؛ وكان مقامهم بمصر الى ان خرجوا مع موسى –ع – الى التيه مائتين وعشرين وسنة(10)... ويبعد ان يتشعب النسل في اربعة اجيال الى مثل هذا العدد..."

(9) وانظر : سفر الخروج 12، 37 ؛ وسفر العدد، 1، 45–46 ؛ وهذا العدد الضخم محل رد واخذ وتأويل بين المؤرخين والشراح، انظر مثلا:
Daniel - Rops , histoire sainte , le peuple de la Bible , p 110
ومحمد عزة دروزة : تاريخ بني اسرائيل، ص 45.

(10) هذا قريب من نص التوراة السبعينية، وعلى هذه اعتمد المؤرخون، انظر القرافي : الاجوبة الفاخرة، ص 119، وفي التوراة المعتمدة عند اهل الكتابين انهم لبثوا بمصر 430 سنة، وانتهى ابن حزم بعد نقده لهذه الرواية انهم لم يقيموا بمصر الا 417 سنة.

ثم ذكر ان الحديث عن احصاء الجيوش والضرائب ونفقات المترفين يصاحبها الغلو في التقدير، وعله ذلك عنده "ولوع النفس بالغرائب، وسهولة التجاوز على اللسان، والغفلة على المتعقب والمنتقد، حتى لا يحاسب نفسه على خطأ ولا عمد، ولايطالبها في الخبر بتوسط ولاعدالة، ولا يرجعها الى بحث وتفتيش..." تناول ابن حزم هذا الموضوع نفسه في "الفصل"(11)، وحججه في الرد تتلخص فيما يلي :

1) بعد ذكر حدود صحراء سيناءوالدول المجاورة لها، والتلميح الى تاريخ صدامهم مع بني اسرائيل، ومساحة دولة بني اسرائيل من فلسطين والاردن، عقب على ذلك بقوله : "فاعجبوا لهذا الكذب المفضوح، وهذا المحال الممتنع، ان تكون المسافة المذكورة تقسم ارضها على عدد يكون ابناء العشرين منهم فصاعدا خاصة أزيد من ستمائة الف، فأين من دون العشرين ؟! واين النساء ؟!." (لاحظ وجه الشبه بين ما ذكره ابن خلدون، واعتماد كل منهما على ما عرف في الجغرافيا والتاريخ من ضيق مساحة دولة بني اسرائيل عن ايواء هذا العدد).

2) ثم نقل خلاصة ماورد في سفر العدد ويوشع من توزيع الاردن وفلسطين بين الاسباط، وبين ما في عدد رجال كل سبط من الاسباط من غلو وكذب ؛ وان الامر في ولد دان أفحش من سائر ما في ولد اخوته، واوضح اسباب ذلك، الى ان ختم هذه الفقرة بقوله : "هذا المحال الممتنع الذي لم يكن قط في العالم على حسب بنيته وترتيبه..."

3) ثم لاحظ ان رقم ستمائة ألف وثلاثة آلاف رجل لا يتماشى مع قانون تزايد السكان، وذكر العوائق الخارجية التي تحول دون بلوغ هذا العدد فكان اكثر دقة وعمقا من ابن خلدون الذي لمح في ايجاز الى استحالة بلوغ بني اسرائيل مثل هذا العدد في مدةمائتين وعشرين سنة وبهذا يكون ابن حزم سابقا لابن خلدون ومالتس(12) في الكشف عن قوانين تزايد السكان "فيا للناس كيف يمكن أن يتناسل من ولادة واحد وخمسين رجلا فقط في مدة مائتي عام وسبعة عشر عاما فقط أزيد من الفي الف انسان ؟!

(11) مـن ص 165 الى ص 177.

(12) يـحسن الرجـوع الى ما كتبه الدكتور علي عبد الواحد وافي في مقدمة "المقدمة" ص 126، تعليق (4).

هذا غاية المحال الممتنع، لانه نص في توراتهم انه انتسل منهم ستمائة الف وثلاثة آلاف رجل، كلهم لم يعد فيهم ابن اقل من عشرين سنة، ولعل من دون العشرين عاما منهم يقاربون هذا العدد، ثم النساء، ولعلهن نحو هذا العدد وقد علم كل من يميز من الرجال والنساء ان الكثرة الخارجة من الاولاد لم توجد في العالم لصعوبة الامر في تربية اطفال الناس، ولكون الاسقاط في الحوامل، ولابطاء حمل المرأة بين بطن وبطن، ولكثرة الموت في الاطفال ؛ فهذه أربع عوارض قواطع دون الكثرة الخارجية في الاولاد للناس". وذكر ان كثرة النسل لاتوجد الا في القليل النادر عند الملوك وذوى اليسار، واما من لايجد الا الكفاف وفوقه مما لايبلغ الاكثار من الوفر، فلا يمكن ان يتكاثر فيهم النسل، وتخلص بعد ذلك الى ان هذا العدد يستحيل وجوده في بني اسرائيل لان ظروف معاشهم وحالتهم الاقتصادية تحول دون تكاثر النسل تكاثرا مفرطا لانهم "كانوا في حياة يوسف – ع – في كفاف من العيش اصحاب غنم فقط، ولم يكونوا في يسار فائض، ثم كانوا بعد موت يوسف واخوته في فاقة عظيمة، وعذاب ونصب، وسخرة متصلة، وذل راتب، وبلاء دائب، وتعب زاهق يكاد يقطع عن الشبع، فكيف عن الاتساع في العيال، والاشر في الاستكثار من الولد ؟!".

وختم حججه بما لايخلو – على عادته – من تنكيت وسخرية لاذعة "... ذكر في توراتهم أنهم كانوا كلهم يسخرون في عمل الطوب ؛ وتالله ستمائة الف طواب لكثير جدا !..."

وامتاز ابن خلدون عن ابن حزم في تفنيد الرواية باستناده الى امور نفسية وسياسية وتاريخية (التهويل في احصاء الاموال والجيوش، الخ لكل دولة حصة من الحامية الخ...، ملك الفرس ودولتهم اعظم من ملك بني اسرائيل بكثير الخ...)، ولعل مرد ذلك الى ان ابن خلدون مارس السياسة عمليا ، وبلا خيرها ومرها، وتكونت له من مشاهداته وانطباعاته تجارب خصبة أمدته بمعين لاينضب عندما دون "مقدمته" الذائعة الخالدة، وابن حزم لم تساعده ظروف حياته على اكتساب تجارب سياسية في مثل خصوبة وثراء تجارب ابن خلدون.

محمد محفوظ

كاليكولا

تأليف البار كامو
نقلها الى العربية حسن الزرلي

يسر « الفكر » مساهمة فى نشر الثقافة المسرحية بهذه البلاد ان تنشر ابتداء من هذا العدد المسرحية الخالدة « كاليكولا » التى الفها فقيد المسرح البار كامو وقد نقلها الى العربية صديقنا الاستاذ حسن الزمرلي .

الفكر

ـ الفصل الاول ـ

المشهد الأول

(جمع من النبلاء من بينهم شيخ طاعن فى السن بقاعة من قاعات القصر . تبدو عليهم علامات الانقباض وتوتر الأعصاب)

النبيل الأول ـ لم نتصل بأى خبر بعد

الشيخ ـ لا خبر فى الصباح . لا خبر فى المساء

النبيل الثاني ـ لا خبر منذ ثلاثة أيام

الشيخ ـ يذهب الرجال للاستطلاع ، ثم يعودون ويشيرون برؤوسهم ويقولون : لاشىء .

النبيل الثاني ـ لقد خاضوا البادية شبرا شبرا ، ولا سبيل للعثور على أية علامة

النبيل الأول ـ وما الداعى للحيرة قبل الابان ؟ علينا أن ننتظر ، فمن الجائز أن يرجع مثلما ذهب .

الشيخ ـ رأيته خارجا من القصر ... كانت نظراته غير عادية

النبيل الأول ـ كنت حاضرا أنا أيضا ... وسألته ما به

النبيل الثاني ـ وما كان جوابه ؟

النبيل الأول ـ كلمة واحدة « لاشىء »

سكوت . يدخل هيليكون وهو يأكل بصلا

النبيل الثاني ـ هذا حادث يدعو حقا الى الحيرة والانقباض

النبيل الأول ـ هذا شان جميع الشبان

الشيــخ ـ طبعا ... لأن التقدم فى السن يمحو كل شىء

النبيل الثانى ـ هذا رأيـك ؟

النبيل الأول ـ لندع له أن ينسى

الشيــخ ـ من دون شك ... أتلف واحدة ... سيجر مكانها عشرا

هيليكــون ـ من أين لكم أن المسألة مسألة حب وغرام ؟

النبيل الأول ـ وما عساها ان تكون غيرهما ؟

هيليكــون ـ ربما يكون الكبد ... أو أنه صار يعاف رؤيتكم صباحا مساء . فلو تمكن معاصرونا من استبدال وجوههم من حين لآخـر لخففوا نوعـا ما من ثقلهم . أمـا نفس الأطعمة ، فى كل يوم ونفس الكبــاب ...

الشيــخ ـ أنا أفضل التفكير فى أن السبب انما هو الغرام ، لأنـه يثير العاطفة أكثر من سواه

هيليكــون ـ والاطمئنان ، على الأخص ... نعم انه أكثر اطمئنانا ... وهو نوع من الأمراض التى لا ينجو منها لا الأذكياء ولا الأغبياء .

النبيل الأول ـ ومما يسلينا على كل حال هو أن الحزن لا يدوم . فمن يستطيع أن يتألم أكثر من سنة ؟

النبيل الثانى ـ أمـا أنا ... فلا أستطيع

النبيل الأول ـ ولا أحـد يقوى على ذلك

الشيــخ ـ لأن الحياة تصبح غير ممكنة

النبيل الأول ـ قول صحيح . فقد فقدت أنا زوجتى فى السنة الماضية فبكيت كثيرا . ثم نسيت . ومن حين لآخر أحس بشىء من الأسف ، لكنه فى الحقيقة شىء لا يذكر

الشيــخ ـ ان الطبيعة تحسن صنع الأشياء

هيليكــون ـ ومع هذا فانى أشعر ، عندما أنظر اليكم ، بأنه يتأتى لهـا أن تخطىء أحيانا

يـدخل شيريـا

النبيل الأول ـ هل من جديد ؟

شيــريــا ـ لا جـديد بعد

هيليكـون ـ الهـدوء ، أيهـا السادة ، الهـدوء لنحافظ عـلى الظواهـر • فالامبراطورية الرومانية تتمثل فينا • واذا فقدنا رشدنا فقدت الامبراطورية رأسها • وما أغنانا عن خطب كهذا ••• وهيوا بنا قبل كل شيء نتناول طعـام الفطور ••• فان في هذا العمل سلامة الأمبراطورية •

الشيـخ ـ قول صحيح ، وليس لنا أن نفلت الفريسة جريا وراء ظلها

شيـريـا ـ أنا لا أحب هذا الحادث • كانت الأشياء سائرة سيرا مرضيا • وكان هذا الأمبراطور الكمال بعينه

النبيل الثاني ـ نعم • انه كان كما يجب أن يكون : عديم الخبرة

النبيل الأول ـ ولكن ماذا أصابكم ••• وما الداعي لهذا النحيب ؟ فلا شيء يمنعه من الاستمرار •• كان يحب دروزيلا وفاقا • ولكنها كانت أخته واذا كانت بينهما عـلاقات غرامية فهذا خـرق كبير للاخلاق والتقاليد ••• وأمـا أن تقلب رومـا رأسا على عقب من أجـل موتها فهذا أمر يتجاوز كل الحدود •

شيـريـا ـ هذا لا يضير ••• فأنا لا أحب هذا الحـادث ••• وهـروبه هذا لا يشير في نظري بخير

الشيـخ ـ نعم ، لا دخـان بدون نـار

النبيل الأول ـ على كل حال فان مصلحة الدولة لا تسمح بان تكتسي علاقات من هذا النوع صبغة ناجحة ••• فهي تغض الطرف عن وجودها على شرط أن تجري الأمور في تكتم

هيليكـون ـ أنتم تعلمون أن هذا النوع من الغراميات يثير دائما شيئا من الدوى ••• فالفـراش يئن ، اذا سمحتم لي بهذا التعبير ••• وبعد هذا فمن قال لكم أن ما يحدث الآن هو من أجل دروزيلا ؟

النبيل الثاني ـ ما الداعي اذن ؟

هيليكـون ـ عليكم أن تكتشفوه • وألاحظ لكم أن الخطب هو مثل الزواج •• يتوهم الانسان أنه أختار في حين أنه وقع عليه الاختيار • هذا الواقع ، ولا سبيل لتغييره • فأمبراطورنا كاليكولا رجل بائس، ومن المحتمل أنه يجهل سبب بؤسه ، ففي الجائز أنـه أحس بمضايقة ، فهرب ••• وهذا ما كان يفعله كل واحد منا ••• وأنا أقول لكم ، على سبيل المثال انه لوكان في وسعي أن أختار أبي لما ولدت

يـدخـل سيبيـون

المشهد الثاني

شيريا ـ هل ٠٠٠

سيبيون ـ لا جديد بعد ٠٠٠ يظن بعض الرعاة انهم رأوه فى الليلة البارحة قرب هذا المكان وهو يجرى فى وسط الزوبعة ٠

(يقترب شيريا من أعضاء مجلس الشيوخ ـ يتبعه سيبيون)

شيريا ـ مضى على الحادث ثلاثة أيام ٠٠٠ أليس كذلك يا سيبيون ؟

سيبيون ـ نعم كنت حاضرا ، وكنت أقتفى خطاه حسب العادة ٠٠٠ اقترب من جثة دروزيلا ، ولمسها باصابعه ٠٠٠ ثم انطوى على نفسه كأنه يفكر ٠٠٠ ثم تحول عنها وخرج بخطى متزنة ٠٠٠ ومن ذلك الحين توارى ٠٠٠ ونحن نبحث عنه ٠

شيريا ـ كان هذا الشاب يحب الأدب

النبيل الثاني ـ وهو ميل يوافق سنه

شيريا ـ ولا يتماشى مع مقامه ٠ امبراطور من أهل الفن ٠٠٠ شيء لا يتصور ٠ أجل لقد سبق أن كان لنا أمبراطور أو اثنان من هذا النوع ٠ فالخارجون عن الجادة موجودون فى كل مكان ٠٠٠ غير أن الآخرين وفقوا الى الصواب ، فبقوا موظفين

النبيل الثاني ـ أنهم آثروا الراحة لأنفسهم

الشيخ ـ لكل عمله وحرفته

سيبيون ـ شيريا !٠٠ ماذا فى امكاننا أن نفعل ؟

شيريا ـ لا شيء

النبيل الثاني ـ يجب أن ننتظر ٠٠٠ واذا طال غيابه أحللنا غيره محله ئلا ينقصنا الأباطرة

النبيل الأول ـ لا ، ولكن ينقصنا ذوو الشخصية والعزيمة

شيريا ـ واذا رجع وكان على غير استعداد

النبيل الأول ـ انه لم يزل طفلا ٠٠٠ سوف نخاطبه بلغة الاقناع ونرجعه الى الجادة

شيريا ـ واذا أبى أن ينصاع الى المعقول ؟

النبيل الأول ـ (يضحك) ألم أكتب فى الماضى دراسة فى قلب الحكم ؟

شيريا ـ طبعا ، اذا اقتضى الأمر ! ولكننى أفضل البقاء مع كتبى

سيبيون ــ عفوا (يخرج)

شيريا ــ لقد أغضبه حديثنا

الشيخ ــ انه طفل هو أيضا ... والشبان متضامنون

هيليكون ــ أن يكونوا متضامنين أو غير متضامنين ، فستدركهم الشيخوخة بدورهم لا محالة

يدخل حارس

الحارس ــ رؤى كاليكولا بحديقة القصر

(يخرج الجميع)

المشهد الثالث

(يبقى الركح خاليا من كل شخص بضع ثوان يدخل كاليكولا خلسة من اليسار . وجهه مذعور ثيابه موسخة الماء يتقاطر من شعره . رجلاه ملطختان بالوحل . يضع عدة مرات يده على فمه . يقترب من المرآة ويقف عندما يرى وجهه فيها . يتلفظ بكلمات مبهمة ثم يجلس الى اليمين واضعا ذراعيه بين ركبتيه البعيدتين عن بعضهما بعض . يدخل هيليكون من اليسار ... يرى كاليكولا فيقف الى طرف الركح ويبصره في صمت . يلتفت كاليكولا فيراه ... سكوت)

المشهد الرابع

هيليكون ــ (من طرف الركح) سعيدة كايوس !

كاليكولا ــ (بلهجة طبيعية) سعيدة هيليكون (سكوت)

هيليكون ــ يظهر أنك متعب

كاليكولا ــ أني مشيت كثيرا

هيليكون ــ أجل لقد طال غيابك (سكوت)

كاليكولا ــ كان نيله صعبا !

هيليكون ــ نيل ماذا ؟

كاليكولا ــ ما كنت أريد

هيليكون ــ وما كنت تريد ؟

كاليكولا ــ (مستمرا في لهجته الطبيعية) القمر

هيليكون ــ ماذا ؟

كاليكولا ــ نعم . كنت أريد نيل القمر

هيليكــون ـ آه ! (سكوت يقترب من كاليكولا) ولتفعل به ماذا ؟

كــاليكــولا ـ هو من الأشياء التى لا أملكها

هيليكــون ـ صحيح ٠٠٠ وهل تسوت الأمور الآن ؟

كــاليكــولا ـ لا ٠ لم أتحصل عليه بعد

هيليكــون ـ هذا شىء مقلق

كــاليكــولا ـ نعم ٠ ولأجل ذلك أنا متعب (سكوت) هيليكون

هيليكــون ـ حاضر كايوس

كــاليكــولا ـ رأيك انى مجنون

هيليكــون ـ أنت تعلم انه لا رأى لى على الاطلاق ٠ فأنا أذكى من أن يكون لى رأى

كــاليكــولا ـ نعم ٠ وعلى كلفانى لست مجنونا، بل أقول لك انى لم أكن قط أكثر عقلا ورصانة مما أنا عليه الآن ٠ الا أنى أحسست دفعة واحدة بحاجتى الى المستحيل (سكوت) فالامور على ماهى عليه تبدو لى غير مرضية ٠

هيليكــون ـ هذه نظرية شائعة

كــاليكــولا ـ صحيح ٠ ولكنى كنت أجهل هذه الحقيقة ٠ اما الآن، فانى أعلم (دائما بلهجتــه الطبيعية) فهذا العالم ، عـلى ما هو عليه شىء لا يطاق ٠ لذا أرى نفسى فى حاجة الى القمر ، أو الى السعادة، او الى الابدية ٠٠٠ الى شىء قد يكون من قبيل الجنون ، عـلى شرط الا يكون من هذه الدنيا

هيليكــون ـ هذا تفكير صحيح ، يقبله العقـل ، ولكنه لايستطيع الانسان عادة أن يصر عليه الى النهاية

كــاليكــولا ـ (يقف وبنفس اللهجة الطبيعية) تصريحك هذا لا يثبته شىء ٠ وان نحن لم نتحصل على نتيجة فلأننا لم نـواصل تفكيرنا الى النهاية ٠ وقد يكفى أن يبقى الانسان منطقيا الى النهاية (ينظر الى هيليكون) أنا أعلم أيضا فيم أنت تفكـر الآن ٠٠٠ كـم من مشاكلمن أجلموت امرأة ! لا ٠ فالامر غير هذا يا هيليكون٠٠ فأنا أذكر قليلا والحق يقال ، أن امرأة توفيت منذ بضعة أيام ، وانى كنت أحبها ، ولكن ما هو الغرام ؟ شىء تافه ٠٠٠ فوفاة هذه المرأة لا معنى لها ٠٠٠ صدقنى ياهيليكون ٠٠٠ غيـر أن هذه الوفـاة تدل عـلى حقيقة تجعل نيـل القمر أمـرا ضروريا بالنسبة الى ٠ فهى حقيقة بسيطة ، واضحـة فيهـا شىء من الحماقة ، لكنها صعبة الاكتشاف وثقيلة الحمل

هيليكون ـ وما هي هذه الحقيقة ، يا كايوس ؟

كاليكولا ـ (ملتفتا نحو ناحية أخرى ، وبلهجة لا شخصية فيها) الناس يموتون وهم غير سعداء ٠

هيليكون ـ هيا كايوس ٠ هذه حقيقة تعودها الناس وهم يتحملونها بغاية الارتياح ٠ أنظر من حولك ٠ هل منعتهم حقيقتك من تناول الطعام ؟

كاليكولا ـ (ينفجر دفعة واحدة) اذن هذا دليل على أن كل شيء ، من حولي، انما هو كذب وافتراء ٠ وانا أريد أن يعيش الناس في الحقيقة وان لدى وسائل ستجعلهم يعيشون في الحقيقة ، لاني أعرف ما ينقصهم ، يا هيليكون ! فانهم محرومون من المعرفة ، ولا ينقصهم الا أستاذ يملك موضوع حديثه

هيليكون ـ لا تتحرج كايوس ، مما سأقول لك ٠ ولكنه من مصلحتك أن تستريح قليلا ٠

كاليكولا ـ (يجلس بغاية اللطف) غير ممكن ، يا هيليكون ٠ ولن يكون ممكنا أبدا

هيليكون ـ ولأى سبب ؟

كاليكولا ـ اذا نمت واسترحت ، فمن يعطيني القمر ؟

هيليكون ـ (بعد سكوت) هذا صحيح ! (يقف كاليكولا بعناء ظاهر)

كاليكولا ـ اسمع يا هيليكون !٠٠٠ انى أسمع أصواتا وأقداما تقترب ٠ حافظ على الصمت ، وانس أنك رأيتني

هيليكون ـ فهمت (يتجه كاليكولا نحو الباب ـ يلتفت)

كاليكولا ـ وأني أطلب اعانتك في المستقبل ٠٠٠ اذا شئت

هيليكون ـ لا شيء يمنعني من اعانتك ، يا كايوس ، ولكنني أعرف أشياء كثيرة ٠٠٠ وقليل منها ما يهمني ٠٠٠ ففيم أستطيع اعانتك

كاليكولا ـ على نيل المستحيل

هيليكون ـ سأبذل في ذلك كل الجهد (يخرج كاليكولا ـ يدخل سيبيون وسيزونيا بسرعة)

المشهد الخامس

سيبيون ـ لا أحد هنا ٠٠٠ ألم تره يا هيليكون ؟

هيليكـون ـ لا !٠٠٠

سيـزونيـا ـ هيليكون ! أحقا أنه لم يقل لك شيئا قبل هروبه ؟

هيليكـون ـ لست حـافظ سره ! فأنـا من النظارة بالنسبة اليه ٠ وهى وظيفة أسلم ٠

سيـزونيـا ـ أرجـوك

هيليكـون ـ يا عزيزتى سيزونيا ، ان كايوس رجل يهدف الى المثل العليا وكل الناس على علم من نواياه ، معناه أنه لم يوجد بعد من فهم قصده ٠ أما أنا فانى فهمت ٠ ولذا لا أشتغل بشىء ، وأما اذا أخذ كايوس بدوره يفهم ، فانه قادر بفضل قلبه الطيب ، على أن يهتم بكل شىء ٠ والآلهة يعلمون ما سيكلفنا اهتمامه هذا٠٠ ولكن اسمحى لى ٠٠٠ الطعام (يخرج)

المشهـــــد الســـادس

(تجلس سيزونيا بتعب)

سيـزونيـا ـ لقد رآه بعض الحرس ، روما بأسرها ترى كاليكولا فى كـل مكان ٠٠٠ وكاليكولا لا يرى الا رأيه

سيبيـون ـ أى رأى ؟

سيـزونيـا ـ وكيف تريد أن أعلم ، يا سيبيون ؟

سيبيـون ـ دروزيـلا ؟

سيـزونيـا ـ ومن له أن يجزم ؟ فمما لا شك فيه أنه كان يحبها ٠ كما انـه من المتأكد أن أنسى شىء على قلب الانسان هو أن يرى الموت تختطف له شخصا كان أمس بين ذراعيه

سيبيـون ـ (باحتشام) وأنت ؟

سيـزونيـا ـ آه ! أنا ٠٠٠ أنا العشيقة القديمة

سيبيـون ـ سيزونيا يجب ان ننجيه

سيـزونيـا ـ اذن أنت تحبه

سيبيـون ـ أحبه ٠٠٠ انه أحسن معاملتى ، وكان يشجعنى دائما ٠ ومازلت أذكر جيدا بعضا من أقواله ٠ فانه كان يقول لى ان الحيـاة غير سهلـة ، ولكننا نجد تسليتنا فى الدين ، وفى الفن وفى الحب الذى يحمله بعض الناس نحونا ٠ وكان يقول دائما : ان تعذيب الغير هو الصورة الـوحيدة لارتكـاب الغلط ٠ وكان يحب أن يكون رجلا عادلا

سيزونيا ـ (تقف) انه كان طفلا (تذهب أمام المرآة وتنظر الى وجهها) أنا لا أعبد قط سوى بدنى • فهو الهى الوحيد • والى هذا الاله أتوسل اليوم كى يرجع الى كايوس (يدخل كاليكولا • فيتردد ويتأخر عند ما يرى سيزونيا وسيبيون • وفى نفس الوقت يدخل النبلاء من الجهة الأخرى يرافقهم والى القصر ، يقفون مدهوشين • تلتفت سيزونيا فتجرى هى وسيبيون نحو كاليكولا ـ فيوقفهما باشارة)

المشهد السابع

الوالى ـ كنا ••• كنا نبحث عنك ، يا قيصر

كاليكولا ـ (بلهجة سريعة ومغيرة) أشاهد ذلك

الوالى ـ نحن ••• معناه •••

كاليكولا ـ (بشدة) ماذا تريدون ؟

الوالى ـ كنا فى حيرة من أجلك يا قيصر

كاليكولا ـ (يتقدم نحوه) وبأى حق ؟

الوالى ـ (يتلعثم ثم يجد عذرا فيتحدث بسرعة) أنت على علم من أن عدة مشاكل تتعلق بالخزينة العامة متوقفة على نظرك وقرارك

كاليكولا ـ (تأخذه نوبة شديدة من الضحك) الخزينة •• نعم •• صحيح •• الخزينة •• شىء رئيسى

الوالى ـ بدون شك يا قيصر

كاليكولا ـ (مستمرا فى الضحك ـ يخاطب سيزونيا) اليس كذلك يا عزيزتى ؟ فالخزينة شىء هام ، هام، من الاهمية بمكان !••

سيزونيا ـ كلا يا كاليكولا ••• فالخزينة مسألة ثانوية

كاليكولا ـ ذلك لانك لا تفهمين شيئا من هذه المسائل ••• فأهمية الخزينة قوية فعالة ، ولكل شىء أهميته ••• المالية ، الخلق العام ، السياسة الخارجية القانون الفيلاحى ! قلت لك ان كل شىء رئيسى ، كل شىء فى مستوى واحد ••• عظمة روما ، ومرض أعصابك ، آه ! سأهتم بكل ذلك ••• اصغ الى قليلا أيها الوالى

الوالى ـ كلنا آذان مصغية

(يتقدم النبلاء)

كاليكولا ـ أنت وفى الى ••• أليس كذلك ؟

الــوالى ـ (بلهجة عتاب) قيصر !

كـاليكـولا ـ اذن لى بـرنامج أقدمـه لك · سوف نقلب الاقتصاد السياسي رأسا على عقب وذلك فى مرحلتين ··· وسأبين لك الطريقة ، أيها الوالى بعد ما يخرج النبلاء

(يخـرج النبلاء)

المشهـــد الثـــامـن

(يجلس كاليكولا الى جانب سيزونيا)

كـاليكـولا ـ اصغ الى جيدا · المرحلة الأولى : يجب على جميع النبلاء ، وعلى جميع سكان الامبراطورية الذين يتمتعون بشىء من الثروة ، كبيرة كانت أو صغيرة ـ فلا فرق ـ أن يحرموا جبرا أبناءهم من وراثهم وأن يجعلوا الدولة وارثهم الوحيد

الــوالى ـ ولكن ، قيصر ···

كـاليكـولا ـ لـم أمنحك بعد الحق فى الكلام · وسنعدم هـؤلاء الاشخـاص باعتبـار حاجياتنـا وحسب جريدة نحررهـا بمحض ارادتنا · ويمكن تحويـر هذا النظام عند الاقتضاء ، ولكن دائما بمحض ارادتنا · ونرث هؤلاء الناس

سيـزونيـا ـ (تبتعد) ما الذى اعتراك ؟

كـاليكـولا ـ (بدون أن يغير لهجته) ولا أهمية فى المحافظة على نظام الاعدامات أو بالأحرى ، فان أهمية هذه الاعدامات واحدة ، معنـاه أنها لا أهمية لها لأنهم كلهم مذنبون ، وعلى نسبة واحدة · والاحظ لك أن سرقة المواطنين بصورة مباشرة ليست أكثر شناعة فى نظر الاخلاق من فرض ضرائب غير مباشرة على بضاعات لا استغناء لهم عنها · فالحاكم سارق · هذه حقيقة يعلمها الخاص والعام ، غير أن الطرق تختلف · أما أنا فانى سأسرق علانية · وهذه طريقـة تغنيك عن وسائـل جلب الامـوال بالكميات الصغيرة (بشدة الى الوالى) ستنفذ هذه الاحكام حالا ، وسيوقـع جميع سكان روما على وصياتهم فى هذه الليلة · أما سكان بقية البلاد فانه يجب أن يكونوا قد أنهوا العملية بعد مضى شهر · فابعث بـرسلـك

الــوالى ـ قيصر ! أتتصور ؟

كـاليكـولا ـ اصغ الى أيها الأبله • اذا كانت للخزينة أهمية ، فذلك لان حياة البشر لا أهمية لها • هذه حقيقة واضحة • وعلى جميع الناس الذين يفكرون مثلك أن يقروا بهذا المبدأ وأن يعتبروا حياتهم كلا شيء ، حيث انهم يعتبرون المال كل شيء • أمـا أنا فاني قررت أن أكون منطقيا • وبما انى قابض على السلطة بين يدى ، فسترون ما يكلفكم المنطق • فانى سأقضى على جميع المعارضين ومعارضاتهم • وسأبدأ بك اذا اقتضى الحال

الـــوالى ـ قيصر ! أرجو أنك لا تشك فى طاعتى واخلاصى

كـاليكـولا ـ ولا فى اخـلاصى أنـا ••• صدقنى • ودليلى على ذلك هـو انى أشاطرك رأيك فى اعتبار الخزينة العامة موضوعا جديرا بالتفكير والاهتمام • ولك أن تشكرنى حيث انى عملت برأيك وسلكت طريقك (سكوت ثم بغاية الهدوء) وعلى كل فان برنامجى عبقرى فى بساطته • وبهذا نضع حدا للنقاش • أمنحك ثلاث ثـوان لتتوارى عن نظرى ••• أحسب : واحد (يخرج الوالى)

المشهـــــد التـــاســع

سيـزونيـا ـ انى لم أعد أعرفك ••• أنت تتفكه ، أليس كذلك ؟

كـاليكـولا ـ ليس هو بالتفكه بالضبط ••• بل هى البيداغوجيا

سيبيـــون ـ هذا عمل غير ممكن ، يا كايوس

كـاليكـولا ـ فعـلا !

سيبيـــون ـ انى لا أفهمك

كـاليكـولا ـ فعلا ! فان الموضوع هو فى انجاز ما هو غير ممكن ، أو بالاحرى فهو فى جعل ما هو غير ممكن ممكنا •

سيبيـــون ـ ولكنه لعب لا تعرف له نهاية ••• فهو تنادر جنونى

كـاليكـولا ـ كلا يا سيبيون ! بل هو فضيلة امبراطور (ينقلب بعلامة التعب) لقد فهمت الآن فى النهاية ، منفعة السلطة • فانها تمكن صاحبها من محاولة ما هو غير ممكن ••• ومن اليوم فصاعدا ، فانه لم يعد حد لحريتى •

سيـزونيـا ـ (بحزن) لست أدرى ، هـل ان قرارك هذا يدعو الى الفـرح ، يا كايـوس

كـاليكـولا ـ ولا أنا ، يا سيزونيا • ولكنى أحتمل انه يجب ان نعيش بـه (يدخل شيريا)

المشهـــد العـــاشر

شيــريــا ـ بلغنى خبر عودتك ··· فأنا أدعو لك بالصحة والعافية

كـــائيكــولا ـ صحتى تشكرك (سكوت ثم دفعة واحدة) اذهب يا شيريا فانى لا أحب أن أراك

شيــريــا ـ أنت تبهتنى يا كايوس

كـــائيكــولا ـ لا تبهت نفسك · فأنا لا أحب الأدباء ولا أطيق أكاذيبهم · فهم يتكلمون ولا يستمعون لانفسهم ، ولو استمعوا لأنفسهم لعلموا انهم كلا شيء · ولعدلوا عن الكلام · هيا تنح من أمامى ، فانى لا أحب الشهود المكذوبين

شيــريــا ـ اذا كنا نكذب ، فانما نكذب غالبا عن غير قصد ··· وانا أدافع عن براءتى

كـــائيكــولا ـ لم يكن الكذب بريئا قط · وكذبكم يكسب الأشخاص والأشياء أهمية · وهو صنيع لا أستطيع أن أغفره لكم ·

شيــريــا ـ ولكنه من الضرورى أن تدافع عن هذا العالم · اذا ما أردنا أن نعيش فيه ·

كـــاليكــولا ـ لا تدافع · فقد قضى الأمر · فهذا العالم لا قيمة له · ومن اقتنع بهذه الحقيقة ظفـر بحريته (يقف) وأنـا أبغضكم لأنكـم لستم أحرارا · وها أنا الحر الوحيد بالامبراطورية الرومانية بأكملها · فأفرحوا وأطربـوا ، فقد جاءكم فى النهايــة أمبراطور يعلمكم الحـرية · اذهب يا شيريا ··· وأنت ايضا يا سيبيون فان الصداقة تضحكنى · اذهبا واخبرا روما بانها استرجعت حريتها وأن تجـربــة كبيرة قد ابتدأت معها · (يخرجان بعدما يكون كائيكولا قد أعرض عنهما)

سيــزونيــا ـ أنت تبكى !···

كـــائيكــولا ـ نعم يا سيزونيا ··· أبكى ···

سيــزونيــا ـ ولكن أى تغيير طرأ عليك ؟ ان ثبت أنك كنت تحب دروزيلا ، فانك كنت تحبها فى نفس الـوقت الذى كنت تحبنى فيه أنا أيضا ··· وغيرنا ، وليس هذا الحب سببا كافيا حتى يقذف بك موتها فى الفلاة طيلة ثلاثة أيـام بلياليها وحتى تعود لنا بهذا الوجه المعادى المكفهر

كـــائيكــولا ـ (يلتفت) من حدثك عن دروزيـلا ، أيتها المجنونـة ؟ أم انت لا تتصورين رجلا يبكى لغير الحب ؟

سيزونيا ـ عفوا ، كايوس ٠ ولكنني أحاول أن أفهم

كاليكولا ـ ان الرجال يبكون لأن الأشياء على غير ما يجب ان تكون (تقترب منه سيزونيا) دعيني يا سيزونيا ! (تبتعد) ولكن ابقى قريبة مني

سيزونيا ـ سافعل ما تريد (تجلس) ان من يبلغ سني يعلم ان الحياة غير حسنة٠ ولكن اذا كان الشر موجودا على وجه البسيطة ، فلماذا نزيدها شرا ؟

كاليكولا ـ لا يمكن أن تفهمي ٠٠٠ وهذا لا يهم فقد أجد مسلكا للخروج من هذه الحالة ٠٠ ولكني أحس في نفسي باندفاعات لا أتصورها٠٠ فماذا عساني أفعل لأقمعها وأتغلب عليها؟ (يلتفت نحو سيزونيا) آه ! سيزونيا ! أنا أعلم أن اليأس يدرك الناس أحيانا ٠ ولكني كنت أجهل معنى هذه الكلمة وكنت أعتقد مثل غيري من الناس أن اليأس مرض يعترى الأرواح ٠٠٠ فوجدت أن الجسم يتألم٠٠ فجلدي يؤلمني ، وصدري وأعضائي ٠ ثم أني أحس بفراغ في رأسي وبفيضان في قلبي ، ويزعجني أكثر من كل ذلك هذا الطعم الذي أحس به في فمي ٠ فليس هو بالدم ولا هو بالموت ، ولا بالحمى ٠٠٠ ولكن خليط من كل ذلك ، وفي آن واحد ٠٠ وبمجرد أن أحرك لساني تسود الدنيا في عيني وأعاف جميع البشر ، فمن اصعب الأشياء ومن أمرها أن يتحول الانسان رجلا !

سيزونيا ـ يجب ان تنام ٠٠٠ أن تنام مدة طويلة ٠٠٠ يجب أن تستسلم للنوم وأن تكف عن التفكير ٠٠٠ سأحرس نومك ، وعندما تفيق تستعيد الدنيا معناها في نظرك ٠ وعندها تذلل سلطتك الى محبة ما هو جدير بالحب كما تتبين من أن الأمور الممكنة جديرة أيضاً بأن تجرب

كاليكولا ـ ولكن يجب النوم ، لأنام ، ويجب الاستسلام ٠ وهذا غير ممكن

سيزونيا ـ هذا ما يظنه الناس عندما يبلغ بهم التعب أقصاه ٠ ولكنه يأتي وقت يستعيد الانسان فيه ارادته ، ويجد لنفسه يدا ثابتة

كاليكولا ـ ولكن يجب أن يعلم أين يضعها ٠ فماذا تهمني يد ثابتة ، وماذا تنفعني هذه السلطة المبهتة ، اذا كنت عاجزا عن تغيير سير الأمور ، واذا كنت لا أقدر على أن أجعل الشمس تغرب في الشرق ، وان تقل الالآم ، وان يصبح البشر غير مهدد بالموت ؟ لا يا سيزونيا ٠ سيان عندي أن أنام أو أن لا أنام مالم تكن لي الغلبة في تسيير هذا العالم ٠

سيزونيا – ولكنك تريد أن تصبح الها · ولا أعرف جنونا أفضع من هذا

كاليكولا – أنت أيضا تحسبيننى مجنونا · ومع هذا ما هو الآله حتى أرغب فى أن أكون مثله ؟ فان ما أرغب فيه اليوم بكل قواى هو فوق قوة الآلهة · فانى أتحمل أعباء مملكة ملكها الحقيقىهو المستحيل

سيزونيا – ليس فى استطاعتك أن تمنع السماء من أن تكون سماء أو أن تحور وجها جميلا الى وجه قبيح ، أو أن تقلع الاحساس من قلب الرجل

كاليكولا – (بحماس متزايد) أريد أن أخلط السماء بالبحر · وأن أعجن الجمال بالقبح وأن أجعل الضحك يتفجر من الألم

سيزونيا – (تقف أمامه متوسلة) هناك الخير والشر والمليح والقبيح ، والرفيع والوضيع والمنصف والظالم ، وأقسم لك أن شيئا من هذا لن يتغير

كاليكولا – (مستمرا) وارادتى هى أن أغيره · وسوف أقدم لهذا العصر المساواة هدية · وعندما تذلل كل صعوبة ، ويقع المستحيل على وجه هذه البسيطة ، ويصبح القمر فى قبضة يدى ، يمكن عندها أن أتغير وان يتغير العالم معى ، وعندها يتنحى عن البشر شبح الموت ، وعندها يعيشون سعداء ·

سيزونيا – (فى صرخة) لا يمكن لك أن تنكر وجود الحب

كاليكولا – (ينفجر وبصوت مرعب) الحب ، يا سيزونيا (يمسكها من كتفيها ويحركها بشدة) لقد تعلمت انه كلا شىء ، فالحق مع الآخر : الخزينة العامة ! لقد سمعته · أليس كذلك ؟ كل شىء يبتدىء بالخزينة العامة·آه ! سأعيش ابتداء من الآن ! الحياة يا سيزونيا الحياة هى عكس الحب · أنا أصرح لك بهذه الحقيقة · وأنا أدعوك لحضور حفلة لا نهاية لها · أدعوك لقضية عامة لأجعل ما يمكن مشاهدته · ويلزمنى لذلك خلق كثير ، يلزمنى نظارة وضحايا، ومجرمون (يقفز الى الكفة ويأخذ يضرب بشدة كبيرة وبدون انقطاع)
ليدخل المجرمون ، يلزمنى مجرمون ، وكلهم مجرمون (مستمرا فى الضرب) أريد أن يدخل المحكوم عليهم بالاعدام · الجمهور ! ··· أريد جمهورى !·· الحكام والشهود والمتهمون · كلهم محكوم عليهم سلفا · آه ! سيزونيا سأريهم ما لم يروه قط : الرجل الحر الوحيد بهذه الامبراطورية ! (على دوى الكفة يمتلىء القصر شيئا فشيئا بدوى يأخذ فى الازدياد ويقترب : اصوات

أسلحة ، خطوات سريعة ، كاليكولا يضحك ويستمر فى الضرب يدخل الحرس ثم يخرجون) وانت سيزونيا ستمتثلين لأوامرى، ستساعدينني دائما ۰۰۰ وسوف يكون العجب ۰ أقسمى بأنك ستساعدينني يا سيزونيا

سيزونيا ـ (مذهولة بين ضربتين من الكفك) وفيم القسم ، بما أنى أحبك

كاليكولا ـ (بنفس اللهجة) وتفعلين كل ما أقوله لك

سيزونيا ـ كل ما تريد كاليكولا ۰ ولكن كف عن الضرب !۰۰۰

كاليكولا ـ (مستمرا فى الضرب) وتكونين قاسية ۰

سيزونيا ـ (تبكى) قاسية

كاليكولا ـ باردة لا يؤثر فيك شىء

سيزونيا ـ لا يؤثر فى شىء

كاليكولا ـ وستتألمين أيضا

سيزونيا ـ نعم ، كاليكولا ۰۰۰ ولكننى افقد رشدى (يدخل نبلاء مدهوشين ومعهم رجال القصر ۰ كاليكولا يضرب ضربة أخيرة ۰ يرفع المطرقة ثم يلتفت نحوهم ويناديهم

كاليكولا ـ (وقد فقد رشده) تعالوا كلكم ، أقتربوا ۰ آمركم بأن تقتربوا (يرتعش) أمامكم إمبراطور يريد أن تقتربوا (يقتربون كلهم فى جزع عظيم) تعالوا بسرعة ۰ والآن اقتربى يا سيزونيا (يمسكها من يدها ويجرها أمام المرآة ، وبالمطرقة يمحو بشدة جنونية صورة ظهرت على السطح الصقيل ـ يضحك) لم يبق شىء ، أرأيت ؟ لم يبق أى ذكر ۰ جميع الوجوه توارت هربت ، شىء ! لم يبق شىء ! أتعلمين ماذا بقى ؟ اقتربى اقتربى ! وانظرى ! اقتربوا وانظروا (يقف أمام المرآة وقفة المجانين)

سيزونيا ـ (تنظر الى المرآة فى جزع) كاليكولا !
(يغير كاليكولا لهجته ۰ يضع أصبعه على المرآة ثم يقف نظره ويصيح بلهجة المنتصر)

كاليكولا ـ كاليكولا !۰۰۰

ستـــار

(يتبع)

الشعـر الغنـائي الانـدلسي

وظهور الشعر الغنائي «الروماني»

بقلـم : ايميليـو غـرسية غـومـز

تعريب : محمد العربي عبد الـرزاق

— 2 —

3 ـ حول وجود شعر غنائي « روماني » سابق للموشحات

◆ **الخرجات الرومانية لا يمكن ان تكون من خلق الشعراء العرب :**

لقد استطاع « نيكل » ان يؤكد ـ واني لأميل مع هذا الى التخفيف من رأيه وحكمه ـ أن ابن قزمان ورفاقه « كانوا بدون شك يفهمون شيئا من هذه اللغة « الرومانية » ، غير أن الذى يعلمونه منها لم يكن يتعدى ما كان يعرفه الكاتب « سرفانتاس » Cervantès ، من العربية او « لوب دى ڤيقا » Lop de Vega من لغة « الفلامان » Flamand وان كانت مؤلفاتهما تتضمن بعض جمل من هاتين اللغتين » (I) • الا انى أرى ان هذا القول غير صحيح فيما يخص الخرجات « الرومانية » • فهى تحمل حقا آثار امتزاج قوى وثنائية لغوية عميقة • وقد كان الشعراء العرب يدخلون عليها بدون شك تغييرات قبل استعمالها ، فتبدو فيها آثار التغييرات الناشئة عن الرواية الشفاهية أو الكتابية لكن :

I) هذه الخرجات ليست مجرد مفردات مقتبسة مضمنة ترمى الى اكساب القطعة لونا محليا أو صبغة غريبة بعيدة عن المألوف • وليست هذه الخرجات مجرد خلط لا معنى له ، رغم ما نجد من مشقة فى التنقيب عن معانيها • انما هى مبتكرات رقيقة ، وليدة فن مستقل ، لا تخلو ابدا من الجمال ، تتضمن من اللطف وخالص الصفاء قدرا يجعلها ما تزال تطرب نفوس المستمعين الاسبان المتفننين فى هذه الصناعة اذا ما كانوا يحنون الى تقاليدهم ولغة آبائهم •

2) وهذه الخرجات تعبر فى أغلبها عن روح غنائية مليئة أنوثة تخالف حقا روح الشواعر العربيات ذوات الشعر الجزل القوى • ونغمة هذه الخرجات قد احتفظت برقة الاصوات المؤتلفة المتوافقة الموروثة عن الامهات والاخوات ـ

(I) نيكل : « ديوان ابن قزمان » المقدمة ص 29

وكانهـا صوت الفتاة البكر الغر ـ وانا لنرى فى هذه الخرجات مـلامح بيئة اجتماعية وجو ثقافى يختلفان تماما عن بيئة العرب وجو ثقافتهم ٠

اما من يقول بان الخـرجات قد وقع ابتكارها من طرف الشعراء العرب فانه يصطدم بعقبة كأداء ٠ فاما ان يكون هؤلاء الشعراء قد وهبوا خيالا بديعا نادرا فاستطاعوا أن يبعثوا أساليب حياة غريبة تماما عن اساليب حياة جنسهم ومجهولة فى كاهل آدابهم ، فجاؤوا بها فى منتهى الروعة وغاية الأصالة ٠ واما ان يكونوا نسجوا على منوال مسيحى وطريقة نصرانية قديمة العهد ومعنى هذا الاعتراف بوجود شعر غنائى «رومانى » سابق لشعرهم ٠ لان هذه الخرجات ـ وان كانت لا تندمج فى هذا الشعر الغنائى « الرومانى » ـ فهى على الاقل اثر له وصدى منه ٠ ولسنا فى حاجة الى القول بان كلا من الرايين السابقين يفترض عند هـؤلاء الشعراء وجـود حساسية غنائية ذات روح أوروبيـة ، واقتدارهم على الخلق والابداع فى لغة غريبة عنهم ٠ وليس من الطبيعى ولا من المنطقى أن يصل هؤلاء الشعراء (من هذه الحساسية وهذا الاقتدار) الى القدر الذى نراه فى الخرجات ٠

• وجود خرجات سابقة للموشح يؤدى بنا الى طرح أسئلة ثلاثة :

انى اعلـم كثرة الاسباب الداعية الى تأكيد وجود شعر غنـائى سابق للموشحات بالاندلس ، علمى بكثرة الاسباب التى تدعو الى نفى هذا الشعر ٠ وأعترف انى لن انفك اميل الى تأكيد وجود هذا الشعر السابق للموشحات ما لم يقم دليل قاطع على خطا هذا الرأى ٠ وسوف اعرض الآن بالبحث لمسائل ثلاث هامة متينة الصلة بمشكلنا الذى نحن بصدده ، وغايتى من هذا العمل أن احتج لرايى وارکزه على أسس ثابتة ٠

• هل كانت الخرجات موجودة قبل ظهور المـوشحات ؟

هذا هو السؤال الاول : هل يمكن ان نقيم البرهان على وجود الخرجات قبل وجود الموشحات ؟

انا نجيب بالنفى فى كثير من الاحيان ـ وتكون الاجابة فى هذه الحال تعتمد غـالبا عـلى أمثلـة مما اشرنـا اليه وسميناه « بمحاولـة العـودة الى الكلاسيكية » (2) كما نجيب أحيانا أخرى بالايجاب فى أمثلة أخرى نعتبرها شواهد من نزعة الوفاء للتقاليد وللصناعة الفنية « الرومانية » القديمة ٠

وبقطع النظر عن نص ابن بسام ـ الذى كنا أوردناه آنفا (3) ـ فهذا بعض ما نحتج به لرأينا :

(2) انظر مجلة الفكر (ديسمبر 1962) ص 30 ـ 31
(3) انظر نفس المصدر ـ ص 25

ـ أ ـ اذا نظرنا الى المسألة من الوجهة النظرية ، فليس يوجد ما يمنع الشاعر من استعمال خرجة يستعيرها من غيره • فابن سناء الملك يشير الى هذا الأمر بقول صريح (4) ـ وهو وان لم يدرك التطور التدريجي في التاريخ الا انه وارث تقاليد عريقة في هذه الصناعة •

ـ ب ـ اما في ميدان التطبيق العملي ـ وهذا يؤكد تلك التقاليد النظرية ـ فانا نرى عددا من الشعراء لا يتورعون عن استعمال مثل تلك الخرجات • وابن قزمان نفسه يستعير خرجاته من ابن بقى أو من الاعمى التطلى • وهو لا يصرح دائما بهذا الأمر الا انه يعترف بذلك من حين لآخر ، كما هو الحال في الزجل رقم 52 (من الديوان) حيث يقر بان خرجته ـ أو مركزه ـ مأخوذة من « القديم » :

« وتراه عندى من قديم مرفوع »

ـ ج ـ وان توارد شعراء عرب مختلفين أو شعراء عرب من ناحية وشعراء يهود من ناحية أخرى على استعمال خرجة بعينها (سواء كانت رومانية أو غيرها) لحجة تؤكد هذه العادة عندهم • فهل كان كل هؤلاء الشعراء يعمدون الى السرقة والنقل بعضهم عن بعض ؟ الم يكونوا بالعكس ينهلون من نفس العين ويأخذون من نفس التراث المشترك المشاع ؟

ـ د ـ ان الخرجة لا تتلاءم أحيانا مع الطابع الغالب على القصيد حتى انه لا يمكن تفسير وجه اقحامها فيه الا اذا قبلنا القول بان العادة قد اصبحت أن يختم الموشح بقفلة Copla مستمدة من التراث الشعبي • ولنا في ذلك مثالان من عصر متأخر نجدهما في شعر ابن خاتمة (من شعراء القرن الرابع عشر بعد الميلاد) • وقد ذكرتهما في بحثي المنشور في « الدراسات المهداة الى مينندز بيدال » (ج 2 ، ص 405) وهما يوضحان فيما اعتقد هذه الطريقة

ـ ٥ ـ ثم ان الخرجة تبدو أحيانا غير معقولة بل انه لا يمكن قبولها من الوجهة النفسانية ، اذا لم نسلم بوجودها قبل الموشح مستقلة عنه • فلنأخذ الموشح رقم 34 المنسوب الى الاعمى التطلى في كتاب **دار الطراز** • فالموضوع مبتذل : شاعر يتغنى بتولى ملك جديد ، وعليه ان يشير الى موت الملك الراحل • وهو موقف يدعو الى قدر كبير من اللباقة والحنكة ، فكيف يخرج الاعمى التطلى من هذا المأزق ؟ انه يشخص المملكة ويجعلها تقول :

« واش كان دهانى ياقوم واش كان بلانى واش كان دعانى نبدل حبيبى بثان »

فهذه الخرجة تكون ـ ان نحن افترضنا ان الأعمى هو الذى ابتكرها من

(4) دار الطراز (طبعة الركابى) ص 33

عنده ـ خالية من كل صدق نفساني . وليس لهـا الا تفسير مقبول وهو ان الشاعر يسرد اغنية شعبية يعرفها الجميع ، وردت على لسان غادة لعوب .

ـ و ـ بقى ان نتعرض الى المشكلة من الوجهة الفنية الصناعية ، فان الخرجة تحمل آثار التغييرات التى ادخلها عليها الشاعر عند ما كان يعالجهـا ليجعل منها مركزا لموشحته باضافة قواف داخلية أو حذف قـواف موجودة واختصار الفقرة الرباعية مثلا فى بيتين أو بزيادة عدد يختلف من الابيات . وهذا الأمر يشير ـ فى رأيى ـ الى وجود الخرجة قبل الموشح .

ـ ز ـ من المعلوم ان قافية (اى) ـ وهى من خاصيات المضارع فى اللغة الاسبانية ـ كثيرة الوجود فى الخرجات . فاذا كان الموشح مختوما بخرجـة على هذه القافية فانه يجب ان تكون قوافى كل الاقفال على هذا الشكل . مما يضطر الشاعر الى تحمل مشقة البحوث اللغوية العسيرة . وبعد أفلا يحق لنا أن نقول بوجود الخـرجة قبل نظم القصيد اذا ما كان فى الموشح قـافية من شكل (اى) ؟

ـ ح ـ ثم انا اذا ذهبنا الى ان الموشح متفرع عن التسميط فى شكله وهيكله فلا مناص من أن نلاحظ ان ترتيب القوافى المشتركة فى الموشح على شكل (أ ـ ب ـ ج) مخالف لتقاليد الصناعة الشعرية العربية. ونحن نفسر هذا التـركيب فى القوافى بـوجوب نسج القصيد على منوال خرجة سابقة مركبة على هذا الشكل (أ ـ ب ـ ج) مع وجود تلاؤم صوتى بين القافية (أ) والقافية (ج) ، أو بين القافية (ب) والقافية (ج) . وبما ان هذا التلاؤم الصوتى غير معروف فى العربية فقد اضطر الشاعر الى بناء القوافى المشتركة فى القصيد على شكل (أ ـ ب ـ ج) البعيد عن التسميط كل البعد .

ـ ط ـ والتلاؤم الصوتى الغريب عن التقاليد العروضية العربية يظهر بكـل وضوح فى الخرجـات . ونحن نذكـر ان **ستـارن** قد نشر خـرجة (Gorid vos, ay yermanellas) نجد فيها تقفية تعتمد التـلاؤم الصوتى بين (male) و (demandare) . ومثل هذا كثير . وسنتعرض الآن الى دراسة وزن الموشح .

• أوزان المـوشحات :

اما السؤال الثانى : فهل اوزان الموشحات وبالتالى اوزان الازجـال ، قائمة على عدد المقاطع كما هى الحال بالنسبة الى الشعر « الرومانى » ، أم هى تعتمد على مقدار طول المقاطع وتـوالى الحـركات والسكنات كما هو الأمر فى الشعر العربى الكلاسيكى ؟

وقد طال النقاش حـول هذا السؤال وتركه العلماء الآن بعد أن اجمع الاخصائيون ـ أوكادوا ـ على تبنى الـرأى الثانى . فقد سلك هارتمان هذا

المسلك ونحا نحوه في اي٘منا (نالينو) و (نيكل) و (كولان) و (ستارن) و (هونرباخ) و (ريتر) وغيرهم ٠٠ فانحازوا الى هذا الرأى في بحوثهم ٠ بينما عارض هذا الرأى (البارون دى شاك) و (ريبيرا) ــ والأول عالم في اللغة والآداب الاسبانية والثانى اسبانى ، وكلاهما يمتاز بمعرفة دقيقة للصناعة الشعرية الاسبانية ــ فذهبا الى ان اوزان الموشحات تقوم على عدد المقاطع لاغير

وقد كانت الاوزان العروضية في الشعر الرومانى ــ وبالتالى في الشعر الاسبانى ــ مخالفة دوما للاوزان الكلاسيكية القائمة على التفريق بين المقاطع القصيرة والمقاطع الطويلة، كما كانت تخالف عروض الشعر اللاتينى ٠ فيجب اذن ان تكون هذه الخرجات الرومانية ــ اذا اعتبرناها سابقة للموشحات ــ تخضع لاوزان شعرية تعتمد على عدد المقاطع ــ مثلما كان يراه (ريبيرا) ــ لا لاوزان العروض الكلاسيكى ، عربيا كان أو لاتينيا ٠ فهل نستطيع اثبات هذا الرأى مناقضين في ذلك قول الكثرة من أساطين الاستشراق الاوروبى ؟

اعتقد انا نستطيع ذلك ٠ فلنستمع الى **ابن بسام** من كتاب القرن الثانى عشر م٠ يقول : « وأوزان هذه الموشحات خارجة عن غرض هذا الديوان، اذ اكثرها على غير اعاريض اشعار العرب » (5)

ويتضح من هذا النص ان الخرجات ، والموشحات طبعا ، قد نظم أقدمها، بدون شك ، على اوزان تعتمد على عدد المقاطع فحسب

ونحن نزداد يقينا برجوعنا الى **ابن سناء الملك** ــ وان كانت تعوزه النظرة التاريخية العلمية فانه حجة في ميدان وزن الموشحات ــ وهو **يقول** : « **والموشحات** تنقسم قسمين : الاول ما جاء على اوزان اشعار العرب ، والثانى ما لا وزن فيها ولا المام له بها » (6) وهذا القول في غاية الوضوح ، **ومن العجيب** ان هذه الملاحظات لم تلفت اهتمام احد من الباحثين ٠ بل وان ابن سناء الملك سرعان ما يعقب على هذا الكلام فيقول : « وهذا القسم (الثانى) منها هو الكثير والجم الغفير والعدد الذى لاينحصر والشارد الذى لاينضبط » (7) وأود ان تتاح لى يوما فرصة تفسير كامل هذه الفقرة وتحليلها فانها قد تعين على تفهم صعوبة الاتصال بين مختلف الثقافات ٠

ولننظر الآن الى ملاحظات ابن سناء الملك نظرة التطور التاريخى التى وقف المؤلف دونها : فالموشحات الأولى التى كانت مركزة حول خرجة « رومانية » كانت تخضع لاوزان قائمة على عدد المقاطع لا على مقدار طول المقاطع وقصرها كما هو الشأن في الشعر العربى الكلاسيكى ٠ وفي عهد متأخر نسبيا نظم الشعراء موشحات على الاعاريض العربية ــ وقد ذكر ابن بسام انها قلة بالنسبة الى غيرها ــ وقد يكون السبب في رجوعهم الى الأوزان

(5) انظر كتاب الذخيرة (طبعة القاهرة) ص I
(6) انظر دار الطراز (طبعة الركابى) ص 33
(7) نفس المرجع ــ ص 35

العربية عجزهم عن فهم الاعاريض القائمة على عدد المقاطع فحسب ــ وابن سناء الملك نفسه حجة بينة على هذا العجز ــ أو محاولتهم ارجاع الموشح الى حظيرة اللغة « الرفيعة » والاوزان العربية القديمة ·

ولكنا لا نجد فيما أعلم ــ موشحا واحدا منظوما على وزن مثل الكامل أو الوافر ــ وهما من اكثر البحور استعمالا فى الشعر الكلاسيكى ــ من الاوزان التى تفكك التساوى فى المقاطع فتعوض مقطعين قصيرين (UU) بمقطع طويل (ـ) (8) :

فالموشحات ــ مهما كان نوعها ــ تخضع دوما لتساوى المقاطع ، وهذا يؤكد رأينا فى أن اوزان الموشحات الاصلية كانت قائمة على عدد المقاطع فقط· فبعض الموشحات تخضع بدون شك للاوزان العروضية العربية المعروفة ــ وهذا لا نراه فى أى زجل فى اعتقادى ــ وهى الموشحات التى تخضع لبحور قديمة معروفة دون غيرها · وباستثناء هذه الحالات ، فان كل محاولة للتوفيق بين القطع المنظومة وأوزان محدثة مخترعة ، أو صور عروضية مشكوك فيها ، هى عندى مصطنعة واهية · ومن الواضح ان الخط العربى او التخلى عن اعراب أواخر الكلمات تخليا كاملا ــ خاصة فى الزجل ــ يمكن من الحصول على تراكيب شعرية مقبولة فى الظاهر ، لا تخلو من خلل وتحويرات متفاوتة الشذوذ · لكن الاسبان يستطيعون أيضا محاولة جعل المقاطع الشعرية القشتالية أوزانا توافق الاوزان اللاتينية فى طول مقاطعها وقصرها : وانهم بالغون ذلك الى حد ما اذا تكلفوه تكلفا ·

ونقول فى الخلاصة انا ، اذا استثنينا بعض القصائد الوفية للاوزان التقليدية القديمة الكثيرة الاستعمال ، نجد ان أبيات معظم الموشحات ــ أبيات كل الازجال بدون شك ــ يمكن ان تقاس بعدد مقاطعها فحسب · وما من صعوبة فى هذا الصدد سوى تأكيد الصوت على المقطع الأخير ، ذلك ان هذا المقطع الأخير ، فى الاسبانية Aguda يساوى مقطعين مثلما نرى ذلك فى كلمة Fin فى البيت : (De todo lo naciodo soyel fin) وهذا الموضوع يتطلب دراسة أعمق لكنى افترض ان نتائج هذا البحث ستكون موافقة للنظرية التى أناصرها وانها ستؤكدها تاكيدا بينا · واستطيع ان أقول فى الوقت الحاضر انى قد وصلت ــ بعد دراستى لمئات من الموشحات والازجال ــ الى نتائج أرضى من النتائج المبنية على تطبيق اوزان شعرية كلاسيكية مزعومة ، ولم استعمل فى ذلك سوى طرق بسيطة مثل عد المقاطع وتدقيق موقع الضغط الصوتى من البيت اعتمادا على معرفة لغتنا الاسبانية معرفة لا تعدو الاحساس الغريزى ·

(يتبع)

نقله الى العربية : **محمد العربى عبد الرزاق**
عن مجلة ARABICA

(8) تعويض سبب ثقيل بسبب خفيف (اى تعويض حركتين متواليتين بحركة وسكون) (الناقل)

مع امرأة صديق في بيتها

شعر : عبد الحميد العماري

اغرته بنفسها فأبى . وارادت التوسل لغرضها بالخمر فرفض . فثارت وطعنت في رجولته .

ع . ع

ثرثرت جدا ما دريت طريقي
عمياء أنت ؟ أما شعرت بضيقي ؟ !
تدنين من شفتي كأس مخادع .
لِتُثير فيَّ، غريزة التمزيق...
متأسف، فالخمر ما جرّبتها ! !
كأس المداهنة، لا تروج بسوقي
متأخر ؟! ما شئت قولي، حسرة.
فتأخري في الخمر، جد عميق..
ولتيأسي مما نويت سفاهة
مهما صرفت الوقت في تشويقي..

* * *

سمّيت جبنا، عفتي وتمنعي
أمن الشجاعة أن أخون صديقي ؟!
أنا إن دخلت الدار بعد غيابه،
فدخول عفٍّ، لادخول عشيق
إن كان معنى الجبن عندك عفتي
فالجبن يجري في دمي وعروقي...
لا تعرضي لرجولتي. فرجولتي
فوق الذي تبدين من تلفيق...

ما انت حين أشاء إلا كتلة
كالثلج، تفنى تحت حَرّ حريقي
لكن نفسي ما تزال نقية،
مما بنفسك من خنى وعقوق
وكرامتي أغلى وأكرم جوهرا
من ان تدنس بارتكاب فسوق

* * *

ياويل زوجك! ما يزال مخدّرا
برؤى الجمال، وقدك الممشوق
لكنه ان يصح يوما فجأة،
يكشف عن البلوى بدون بريق
فيحطم الصنم الذي في حبه،
دام الغبيّ، وتاه مثل غريق

عبد الحميد العماري

الكفــاح السيــاسي والثقافــة

بقلـم : مصطفى الأشرف

ان تناول موضوع الثقافـة فى العالم الافريقى الاسيوى الحاضر ، يقتضى أولا البحث عـن الكيفيات والخطط التى تفيد استكمال القيم المغتصبة من عهد الاستعمار والرجوع بها الى الاصل الذى تتكون منه شخصية كل امة بما فيها من تـراث قديم ومكـاسب جديـدة وعزائم خلاقة تنبىء عن المستقبل القريب البعيـد .

ويقتضى ثانيا النظر الثورى الثاقب فى مفهوم الثقافـة ودورهـا الفعـال فى انشاء المجتمع الافريقى الاسيوى والذود بكل تيقظ عن كيانـه الفتى المهدد ، طبقا للمبادىء التى تعتبر الثقافة بفضلها لا كمجـرد متعة وترفيه بل كطاقـة حيويـة تكمن فيها وتنعكس حاجيات الشعوب ومطامحها نحو التحرر الكامـل المستمـر .

ولكيلا يقع أى التباس فى الاذهان لا بد لنـا أن نتساءل عمـا اذا كانت الثقافة فى البلاد الافريقية الاسيوية القريبة العهد بالاستقلال قد تحررت هى الاخرى من بقايا الاستعمار القـديم وحتى من نفـوذ الاستعمـار الجديـد ذى الاساليب اللبقة الفتانة ؟ ولا بد لنا أن نتساءل عما اذا كان مـن صالح الامم الافريقية الاسيوية ومن صالح قـادة الفكـر فيها ان يركنوا الى حالة نفسية تجعلهم يقتنعون بوضع خلاب مبهم يتظاهر بالاستقلال الايجابى غير انه يفقد فى الغالب مميزات ذلك الاستقلال ما دامت تربطـه بالاستعمار الجديد قيـود خفية جبارة وما دامت تغرى العقول والمشاعر ولـو اشباح ضئيلـة مـن تلـك العقائد والزخارف التى طالما تبثها تعاليم المستعمرين فى الضمائر المتغافلة ، ولا سيما بين المثقفين الذين أفسدت عليهم مـركبات النقص فهـم الكثير من الاوضـاع المرتبطة بمصيـرهم القـومى العسيـر المنعش فى آن واحـد كأنهم يرتجون القدوة المثلى والصلاح ممـن أذاقوهم فى الماضى القريب أقسى الهـوان وأشد العذاب .

ولما كان الاحتلال الاجنبى لبلادنـا الافريقية الاسيوية قد أثر فى جوانب الحياة كلها أسوأ تأثير وأخل بجميع القيم فشتتهـا شذر مـذر وجعلها فوضى فلا بد لنا ان نرجع الى نظمها الاصيل وترتيبها اللازم وأشلاء تعز علينا ويعز

علينا استكمال مكوناتها حسب ضرورة العصر ولكن عملنا هذا لا يخلو من أن يكون فى البدء وفى النهاية عملا سياسيا بأتم معناه لان الاستعمار وان تظاهر بالانسحاب فإنه يسد علينا الافق ويغتنم من تساهلاتنــا العقائدية وميوعـة موقفنا فرصة العودة الى سيطرته القديمة باسلوب خفى ، وما هو فعلا يثبت خطاء الواهية لما يراه من تخاذل واضطراب فى سير الامم الافريقية وحكوماتها نحو استكمال السيادة والاستقلال ، ولا يخلو عملنا من ان يكون سياسيا لان العدوان الاستعمــارى فى الماضى والحاضر كـان ولا يـزال يرمى الى أهــداف سياسية بخلال سيطرته على ميادين الثقافة والاقتصاد واسمحوا ان آخذ من قضية الجزائر دليلا واضحا يؤكد لنا ان هناك لفرض النفوذ الثقافى الفـرنسى المتصف بمظاهر النزاهة مصدرا سياسيا صريحا هو مبدأ السيادةالاستعمارية التى تنزع بشتى الوسائل وحتى بالعنف الى هدم المدارس واغلاقها واضطهاد العربية والتنكيل بأدبائها ومعلميها ، وكان من البديهى ان يشعــر الجزائـرى توه بجدة ذلك الباعث السياسى الاجنبى المسيطر على حياة الفكر بأسرها اذ انهم جعلوا من نضالهم الثقافى الواسع النطاق سلاحا سياسيا يعمل هو الاخر فى سبيل التحرير القومى ، وفى رد الفعل هذا ، حتمية تتعدى حيز الارتجال او العناد لان الامر يرجع كله الى اليقين الحاسم بما يهدد المصير الجماعى ولو بسبب الحوادث التى تتراءى فى شكل ثانوى لمن يحسب لهـا حسابا زائفـا كطوارىء لا صلة بينها وبين المبدأ الفتاك ، ولكن من ذا الذى يعمه عن الواقع وهو واحد لا يتجزأ فى نظر المستعمر وعقيدته ، واحـد لا يتجـزأ فى وطأتـه القاسية التى ان داست الشعوب سحقت فى نفس الوقت وبدون تمييز جميع ما تتكون منه شخصيتها وجميع ما تهفو اليه مطامحهـا نحو مستقبـل خـلاق محمل باسباب الترقى والحرية • ومن بين الخراب الشامل الذى تحدثه عربدة الاستعمار بعبثها فى حياة الشعـوب المغلوبـة على أمرها ، ومـن خـلال تلك العراقيل الجبارة الخانقـة التى تتراكم كالجبال على عزة الشعوب المستعمـرة ، سرعان ما ينبثق نفس ضئيل يتغلغل فى ثنايا الاطلال ويتسرب الى الاعمـاق الكثيفة ويعمل عمله الخفى فى أرض الوطن المشوهة بالدمار والدماء فيبدو فى أول وهلة للمستعمر المغتر بغلبته كأنه آخر رمق يردده الاموات ، ثم يزداد النفس قوة فيتحول شيئـا فشيئا الى وعى مشتـرك لا تنفصل فيـه الحاسـة الوطنية عن عباراتها الاصيلة ، وهى لسان الثقافة بأتم المعنى ، ثقافة الاضطراب والنضال الخارجة عن نطـاق الكتب الممزقـة المحرقـة وعن نطـاق المـدارس بالدراسات فيعملها فى طيات الصدور وتلهج بها السنهم بين صفوف المحاربين وفى زمرة المعذبين وكأنها روح البعث المصفاة عنه ترجع الى اصل الكونلتحدده

وليس هذا من باب المجاز والتصوير الرمزى فانه وقع بالفعـل تقـريبا فى الجزائر منذ أكثر من قرن حينما شن الاستعمار غارتـه الشعـواء على البـلاد وتوغل بعدوانـه الشنيع فى صميم الشعب طوال اربعين عاما من حرب طاحنة وعشرات السنين مما يسمونه فى استعاراتهم الملفقة « بالسلم الفرنسية »

وهى عبارة عن نهب مستمر وافقار منهاجى وضغط وابـادة لا مثيل لهمـا فى تواريخ الامم الاخرى وبالرغم من ذلك كله فان العنصرين المعنويين الوحيدين اللذين واجها العدوان الاستعمارى من البداية الى حـد الآن وكانـا سببا فى خلق الكفاح المسلح وتكملة له معا ، هما الباعث السياسى والثقافـة الوطنيـة حسب المفهوم العام الذى تتلخص فيه كالـذخيرة والعتاد ، والنبـع مشاعـر القوة وتعاليمهم المأثورة وسلوكهم التقليدى واقتـدائهم الواعى والغير الواعى بقيم التراث المشترك وحتى تأثرهم بعبر التاريخ القومى وان كانـوا اميين الا ان هناك حالة روحية تشمل الاجيال وتوحد بينها وتكـون من الشعب ظرفـا امينا يحتفظ فى أعماقه بكبائر الاحداث وأبلغها درسا ويسجـل فى احساسه المتوارث على ممر العصور وفى مذكرته الزكيـة ، حصـة بـارزة مـن أصـدق الانطباعات والانفعالات التى تنشأ عن كنه المصير الجماعى فى اطواره الحاسمة واصبحت تمتزج سليقة بالذات والفكر وتنوه كلها باباء القيم والنعرة العادلة والتضامن الفعال وايثار الحق على الباطل والقيام بالتضحيات فى سبيلالحرية والاستقلال وفى جهاد الجزائر اثناء القـرن الماضى دليل كما قلنا على وحـدة العاملين الاساسيين اللذين اثارا الشعب فى وجه الاستعمار الفرنسى اذكانت هناك طبقة من الاقطاعيين تسعى الى التقرب مـن المستعمرين ومساهمتهم فى الحرب العدوانية والنهب وكانت هناك فى الارياف نخبة مـن المثقفين كانـوا قد اوقفوا حياتهم على خدمة الفلاحين بالتعليم والنصيحـة وساقتهم ظـروف المعيشة والنشأ وتأثير الوسط يومذاك الى ان يتعودوا كذلك على مواجهة أشد الاخطار الطبيعية وغيرها فكانوا فى طليعة من ترأس حركة المقاومة فى ابـادة العدوان الفرنسى ويكفى بالذكر عبد القادر بن محيى الدين وكان أكبر شعراء العربية فى عصره مع الاحاطة الواسعة بالثقافة التقليديـة والتـاريخ والالمـام الكامل بما كان يجرى فىوقته من حوادث سياسية فىالشرق وحتى فى الغرب وبعدما عينته جماهير الفلاحين والمجاهدين اميرا على الحرب وشؤون الجماعـة شرع فى انشاء الدولـة الجزائرية من جديد فاختار لها اطارات وقادة من بين ابناء الشعب المثقفين الذين كانوا مثله يبغضون الاقطاعيـة والاستعمـار على حد سواء وهكذا قد تبينت فى أول الامر بدون تلبيس ولا ريب ملامح الحالـة السياسية فى الجزائر تجاه العدوان الاجنبى وكان ذلك بفضل رجال جعلوا من ثقافتهم الحقة العاملة السابقة العهد بخدمة الجماهير ومن وطنيتهم الواعية التى غذتها تلك الثقافة نفسها ، جعلـوا مـن ذى وذيك اداة شاملـة نادرة الحـدة يحاربون بها فى آن واحد أعداء الشعب والحرية سواء كانوا من خونة الداخل أو من الغزاة النازحين الى البلاد وكان الاستعمار قـد تيقن من حقيقة الوضـع الاجتماعى فى الجزائر حسبما أحدثته ظروف الحرب وسطرت مذهبيهالرئيسيين أغراض الاقطاعية المرتزقة من جهة وأهداف الشعب وقادته المجاهدين من جهة اخرى فراح يسعى وراء هدم الاسس التى نشأت عنها نخبـة المثقفين وصغار

الفلاحين والصناع فاغتصب الاراضى الخصبة الشاسعة المدى ومنع من العمل جميع النقابات المهنية التقليدية ذات الانتاج الصناعى المتقن وشن الغارة على اللغة العربية وأحرق خزائن الكتب وخرب المدارس كما قلنا ولم يقتصر على ذلك فتتبع فيما بعد شعراء الملحون والزجالين والقصاصين الذين اضطروا للتعبير باللغة الدارجة عندما اصبحت الفصحى مضطهدة غريبة فى وطنها .

وهناك ظاهرات بليغة تستلفت النظر فى ميدان الثقافة لانها من أهم الاحوال والمواقف التى تمت الى علم الاجتماع بصفة اكيدة ، وخلاصتها ان حاجة الادب فى البلاد المستعمرة المناضلة فى سبيل استقلالها ، العديمة الامكانيات اللائقة ، أمر ماس لا بد من التعبير عنه ولو بلغة خام غير مهذبة ولو بلغة اجنبية ، يدل هذا على ان مفهوم الثقافة لا يعنى الشكل وتنميق اللفظ فحسب بل يتعداهما فى غالب الاحيان الى افصاح كلى عن اللب ، مصدره ضرورة الحياة المندفعة بوظائفها الجسمانية والروحية كالتغذية والتنفس والتفكير

واذا رجعنا الى الثقافة الجزائرية من بدء العهد الاستعمارى الى الآن شاهدنا فيها تلك الظاهرات ورأيناها تخضع لحكم الضرورة الجبارة ليس فى التعبير فقط بل وفى لهجة الاداء نفسها كلسان الحال السائد المهيمن على الخواطر والاحساس وهو الوضع الوطنى فى مقاومته الشاقة للعدوان الاجنبى ، وبالفعل قد وجدت هناك ظاهرة أولى برز فيها شعراء شعبيون ينوهون بالكفاح والحرية كانوا يحظون عند الامير عبد القادر ويبجلون بالرغم مما عرف عنه من شاعرية حقة واعتزاز باللغة الفصحى الا انه كان يحسب للموقف حسابه ويؤثر كمجاهد ومسير سياسى لحركة تحريرية تلك الصيغة من التعبير والنضال الفكرى عن السكوت الذى اراد منه المستعمرون القضاء الساحق على الروح الجزائرية ، ثم نرى تلك الظاهرة الشعرية ، وليدة الاضطرار والحرمان ، وهى تشتد قوة أثناء الثورات المتوالية فتوقظ العزائم وتطلق صرختها المدوية فى مقدم الرايات السود التى كانت ترفرف فوق صفوف المحاربين أيام الحاج محمد المقرانى ، وتخمد شيئا ما بعد ذلك شعلة القومية تحت وطأة الاستعمار المتزايدة العنيفة ويخيم على البلاد صمت طويل يوهم بالعدم والموت وهو بالعكس صمت تتكون فيه مرحلة انتقالية عويصة عجيبة ستفرج عقب الحرب العالمية الاولى عن ظاهرة أخرى تبشر بالرجوع الى الفصحى ولا سيما بتبديل ثقافتها الدينية المحضة وأساليبها التقليدية البالية الى أدب جديد اللهجة يغلب فيه الشعر القومى والمسرح ذى النزعة الاجتماعية والمقالة السياسية المكافحة وكان السبب فى ذلك كله عودة الروح الوطنية ونشأة الوعى الصريح فى الاحزاب السياسية التى صارت تخرج بالتدريج من نطاق الهيئات البرجوازية الى فسحة الجماهير العاملة ، وان كانت الثقافة عرضة للاضطهاد والعراقل ، محصورة الرقعة ، فان الروح الوطنية والكفاح السياسى بتطورهما المستمر ،

هما اللذان حملاها على الثبات فى اداء رسالتها وحتى على التجديد الثورى فى العبارة والمعنى .

اما الظاهرة الثالثة والاخيرة فكانت أدل من غيرها على حاجة التعبير التى تخالج الشعوب عند ما تضطر قهرا لفقد الامكانيات الطبيعية اللائقة بثقافتها، وتلت الظاهرة نصيب وافر من السخرية اذ تصبح لغة المستعمر سلاحا بين أيدى المستعمرين العزل وكأنك بالسهم المسموم يرد الى نحر رامية !

فاننا نلاحظ زيادة على دافع الضرورة أن هناك فى التعبير المحتوم لهجة خاصة ليست فى شىء باللهجة المعهودة عند ذوى اللغة المستعارة ، طغاة كانوا أو تقدميين وانها تفصح عن وضع بذاته وروح أصيلة يغذيها الاحساس المشترك وتغذيتها الوطنية وتزيدها أصالة شتات وملامح من حكمة الشعب وعزيمته الثورية المندفعة نحو قلب الاوضاع الاستعمارية وتبديلها بوضع سليم ايجابى فلا غرابة اذن أن يكون الادب الجزائرى المكتوب بالفرنسية أدبا مستقلا عن اللغة التى يعبر بها ، متخلصا من روابطها العاطفية والعنصرية ، فانه بضرورة الحال وبفضل الباعث القومى الذى أخرجه فى ظروف ما الى الوجود كائن ثقافى تتلخص فيه معانى الثقافة المناضلة .

ان كل ما سبق من عرض تلك الظاهرات الثلاث وتحليل عبرها لجدير حقا بأن يكفل للثقافة الجزائرية ولمثلها اداء متزايد الحدة فى خدمة الشعب ونيل ما تهدف اليه الثورة منذ قيامها فى وجه الاستعمار وسوف تنشأ ظاهرات أخرى تبرهن فى المستقبل عن مكاسب تلك الحركة التاريخية التى ترمى قبل كل شىء الى التحرر والترقى وسوف تتوحد الثقافات الافريقية الآسيوية لتجعل من تجاربها المتبادلة ومن قوة تعبيرها ومن روح الكفاح التى تمتاز بها نوعا جديدا من القيم الانسانية العالمية وبعد ان كانت عبارة عن تيقظ مستمر تجاه العدوان الاستعمارى القديم ستصبح الآلة الحاسمة الكبرى لتصفية البقايا الاستعمارية القذرة التى تكمن الى حد الآن فى الكثير من البلاد الافريقية الآسيوية .

ندوة القراء

مع النفحة الشافية

... القصة القصيرة كما هو معروف تحتاج الى اشياء ذاتية وأخرى موضوعية، فمن الاشياء الذاتية أن تكون الحوادث الجارية في القصة مركزة تركيزا متينا حول الفكرة التي يروم قولها القصاص، وان يكون عامل التشويق فيها قويا بحيث يشد انتباه القارىء، ولا يجعله يفلت منه، أو يتشاغل عنه.

ومن الاشياء الموضوعية براعة الكاتب في سرد الحوادث سردا فنيا، يضفي عليها جمالا له في النفس وقع وفي المشاعر أحاسيس.

وقصة السيد مصطفى الفارسي، تحلت بالصدق في وصفه الحوادث، التي كان أهالي القرية يأتون بها وخصوصا النسوة "حتى ينفع دواء السبيساري ولا حربوشة الطبيب ؟ أهو كيفما يقولوا الاولين آخر طب الكي — علي بالشيخ مبروك — قالوا لي لا يعدو ولا قبلو يدو تجمد الماء" فهذه الاقوال التي ترددها النسوة في القصة، هي حقيقة ما نسمعه من أفواه كل نساء القرى، وهذا المدح والثناء على الشيخ مبروك — ولي القرية الصالح — هو ثناء يقال في كل ولي فمعجزات الاولياء وخوارقهم، شيء لا تحيط به الابصار، ولا تعيه القلوب.

ولقد كان — ولي الله وشيخ القرية — مبروك — شخصية قادرة، أضفى عليه الكاتب بأسلوبه الدقيق في الوصف مكرا، وخبثا ودهاء في السلوك والسيرة وتستطيع أن تدركه وتدرك حقيقته السوداء، من خلال السجف التي أحاط بها نفسه.

"كان يدخل الى البيت جريا على عادته مطاطأ الرأس، يسلم في غير مبالاة، وفي تقاوة فائقة، ثم ينحدر على سرير سلمى وتنحدر معه ملابسه الفضفاضة على اليمين وعلى الشمال ثم يرفع رأسه الى السقف ويتمتم بآيات متقطعة غير مفهومة يجلس بعدها عند رأس المريضة، ويأخذ يدها الناتئة، بين يديه الفظتين، بعد أن ينفث من ريقه ثلاث مرات على وجهها". الى أن يقول الكاتب في وصفه : "وكان هو لايأبه بذلك السخط فيمضي في شغله صامتا دائبا يمر حشائشه على وجهها ويلمس جسدها الفاني بيديه الغليظتين، كما لو كان يريد ان يخلع عنها ثيابها، ثم ينحدر على وجهها المتلهب، ويفتح فاه البخر العريض، فيندفع منه على أهدابها ووجنتيها ريح محرقة وريق كثير.

دقيقة لواقع الحياة الاجتماعية، بقدر ما نجد تفككا في الربط المحكم الذي لا يوهن قوى التفكر ولايشعره بالفجوات الفاصلة بين اجزاء الحوادث.

يقول الكاتب: "وذات يوم كان الطبيب في غرفته... منكبا على بعض مطالعاته، اذ طرق الباب، ودخلت فتاة كانت من زبائنه بخطى متعثرة خجولة، كأنما كانت قادمة على أمر عظيم... وذكرت الفتاة لطبيبها ما فعل الشيخ المتزمت بشبابها... بعرضها.. بمستقبلها".

في رأيي أنه ليس من التوفيق في شيء، أن تفضي الفتاة بسرها، الى ذلك الطبيب الشاب، خصوصا اذا راعينا حوادث القصة ومسرحها التي جرت فوقه "القرية". فالواقع الحي يخالف مخالفة تامة ما جاء في قصة السيد مصطفى الفارسي، فأهل القرية كما هو معهود، يشبهون البدو، من عدة وجوه، وخاصة من ناحية الحياء، والمحافظة على العرض — فمن الغريب أن تتجرأ فتاة على أن تأتي بهذا العمل — وناحية أخرى لها أهميتها وهو أن افضاء البنت الى الطبيب بسرها واذاعة هذا الخبر في القرية — من المرجح أن تتجه الانظار أولا وبالذات الى الطبيب ذاته. وان تنصرف عن ولي الله الصالح، الذي أحاطت اسمه بهالة من الاكبار والتقديس حتى من كبار علية القوم، وأن ينصرف النظر عن الشيخ كما انصرف عن واقعته مع سلمى.

لكن الاخ مصطفى أراد أن يضفي على القصة ويكسبها نوعا من الحياة الواقعية، فجعل الجديد ينهزم أمام القديم، ثم القديم ينهزم أمام الجديد، وهو أمر لم يكن له من الطرافة والحرارة ما يجعل القاريء يحس بقوة هذا الصراع وبشدته.

واستمع الى الكاتب حين يقول: "وعمت القصة المؤلمة الارجاء وملات كل أذن وشغلت كل شفاه الى أن أصبح باب الرزق في وجه الشيخ في ضيق سم الخياط".

ألا ترى أن باب الرزق قد ضاق أمام شيخ القرية

ووليها الصالح في سرعة كسرعة دعواته، تجعل نهاية الشيخ. نهاية محتشمة تنقصها النشوة واللذة التي يشعر بها الجديد المنتصر، على القديم المنتحر، ومن أجل هذا لم تكن نهاية موفقة كما كنا نرجوها من السيد مصطفى.

ومهما يكن فإن الاخ الفارسي وفق الى حد بعيد فيما هدف اليه، وكان دقيقا في تصوير الحوادث، وان لم يكن كذلك في ربطها، ولحمة اجزائها.

محمد الهادي الاسود — مدرسة ترشيح الاساتذة المساعدين —
— قسم الآداب —

تونس في مقدمة العـــــاملين للموسيقى

بقلم : عـلي الجنـدوبي

على اثر اعلان (اللجنة الثقافية) للجامعة العربية في آخر الموسم الدراسي الفارط لفت نظري في الزميلة "مجلة الكواكب" المصرية فصل كتبه الاديب القصصي الاستاذ صالح جودت حول الاعلان عن (مؤتمر فني للموسيقى العربية) ابدى فيه رايه وقال : (ان البلاد الوحيدة في العالم العربي التي عملت على جمع تراثها والاحتفاظ به في الناحية الفنية هي المغرب الاقصى هذه البلاد التي بها معهدان احدهما في (الرباط) والآخر (بالدار البيضاء) يشرف عليهما نوابغ مغاربة) ؟ مع ابداء رايه في المؤتمر المقبل، وعلى اثر هذا وصلت الدعوة لتونس من طرف لجنة تنسيق اعمال المؤتمر وفي آخر لحظة تأجل اجتماع اللجنة وفي الشهر الفارط ارتحل وفد تونسي الى القاهرة متركبا من ثلاثة انفار يترأسهم ممثل كتابة الدولة للشؤون الثقافية والاخبار الاستاذ الهاشمي السبعي وحضر الاجتماع ممثلون عن الامم العربية وكانت الدعوة من طرف ليونسكو واجتمعت اللجنة لتنسيق اعمال مؤتمر الموسيقى المقبل مادام معلوما لدى الجميع ،انه لم ينعقد مؤتمر فني منذ عام (1932) حيث وقع بالقاهرة المعزية لفائدة النهوض بالموسيقى.

وهنا نغتنم هذه الفرصة لنصارح الزميل صالح جودت، ونثبت له في هذه العجالة ما عليه تونس من الازدهار الفني وهي البلاد الوحيدة التي عملت بتوصيات المؤتمر، ولم يكد ينتهي المؤتمر حتى حل بتونس المأسوف عليه الاستاذ اسكندر شلفون صاحب "مجلة روض البلابل" الفنية والتي أصبحت اليوم مصدرا من اهم المصادر الفنية، والتي هذا النابغة بتونس ثلاث محاضرات نادرة حول تاريخ الموسيقى، الاولى على منبر الخلدونية والثانية بمسرح البالماريوم والثالثة بسوسة.

وترأس حفلا اقيم بمسرح البالماريوم ترنم وعزف فيه افراد (جوقة البارون) وكتب اذ ذاك المرحوم الاستاذ مصطفى صفر فصلا مهما في جريدة

"الدبيش" حول الموسيقى العربية ونوه بشأن المحاضر ومكانته وعلق على تلك المحاضرة. وعلى اثره حل بتونس المرحوم الموسيقار والناياتي الحلبي الشيخ على الدرويش وعمل مع البارون لتهيئة اعمال المؤتمر، وعلى اثر هذا جلبه المعهد الرشيدي ثلاث مرات لتدريس أصول الموسيقى وعنه تخرج كل من الشيخ خميس الترنان والسيد صالح المهدي ونسج على منواله في (الناي) ومثلهما صالح الخميسي واحمد الحداد وعلى اثر مؤتمر الموسيقى العربية الذي ضم (24) امة وشاركت فيه تونس والجزائر والمغرب، تأسست بتونس جمعية "الرشيدية" عام (1934) ووضع حجرها الاساسي المرحوم الاستاذ مصطفى صفر استاذ التاريخ والاداب وقد مضى اليوم على هذه المؤسسة (28)سنةوهي تعمل لسمعة تونس من الوجهة الفنية، وللتعريف بأصول الموسيقى القومية التي هي جزء لايتجزأ من الموسيقى العربية، وقد سجلت "الرشيدية" كامل الاربع عشرة (نوبة) من (المالوف) الذي هو من أهم أصول الموسيقى التونسية، ومعلوم ان الموسيقى الاندلسية جاءت مع الجالية الثانية الاندلسية التي استقر قسم منها في (طنجة) وقسم في (تلمسان) وقسم في (تونس) — وقد عملت كل بلاد باسلوبها وطابعها واوزانها وفي المقدمة تونس على عهد محمد الرشيد الاديب الفنان الذي يرجع له الفضل في ترتيب (النوبات) — وطريقته هي التي نسجت عليها (الرشيدية). والمعهد الرشيدي للموسيقى التونسية يحمل اسمه نظرا لما اسداه لتونس في هذا المجال مع تركه (ديوان شعر) مخطوطا اظنه موجودا في المكتبة الوطنية، وبالبحث تبين ان مخطوطة ثانية توجد في مكتبة الجزائر وثالثة في مكتبة قسنطينة التي اقام بها (18) سنة فرارا من اخيه الذي حاول اغتياله والديوان مشتمل على الغزل والحنين والفن.

واليوم يوجد بمكتبة المعهد الرشيدي (14) نوبة مسجلة ولكل نوبة ملف خاص بهـا نظما ولحنا مع ما تفرع عن كل نوبة، وقد سجلت ايضا على لسان الحاكي مجموعاتها من طرف شركة افرنسية عام (1954) — والمعهد يملك نسختين منها ونسخة قدمت الى مؤتمر دلهي عندما مثل تونس فيها الاستاذ الشابي كاتب الدولة للتربية القومية اذ ذاك ورافقه الدكتور الطاهر الخميري ومحمد مزالي وعبد السلام الكناني ومحمود المسعدي وبهذا اصبح صوت تونس وانتاج المعهد الرشيدي بدلهي الجديدة وفي اذاعتها.

ولنا بتونس اليوم مدرستان (المعهد الرشيدي) و(المعهد الوطني للموسيقى)

والاقبال متزايد عليهما في كل عام من الطالبات والطلبة، كما أصبحت الموسيقى مقررة في المعاهد الثانوية ويرجع الفضل في ابراز الشخصية الفنية واعتبارها مادة أساسية في ميدان الثقافة العامة الى فخامة رئيس جمهوريتنا المجاهد الاكبر الحبيب بورقيبة الذي اصدر أمرا جمهوريا عام (1958) في تكوين (ديبلوم الموسيقى العربية) وعلى ضوء هذا اصبح لتونس ما يزيدعن (25) مدرسا للموسيقى مع اهتمام كتابة الدولة للشؤون الثقافية والاخبار بصفة خاصة بكل من: (المعهد الرشيدي) و(المعهد الوطني للموسيقى) اللذين يزاولفيهما التعليم ما يزيد عن (800) طالب وطالبة – بدرجاتهم ولا ننس فضل لجنة الثقافة البلدية وفضل كتابة الدولة للتربية القومية ماديا وادبيا، وهذا الذي نسجله بكل ارتياحفي صفحات التاريخ وقد سنت سنة حسنة وهي احداث (فرق فنية) لكلمعهد ثانوي باطراف الجمهورية التونسية وفي كل عام تقع حفلة بكل من مدرسة باردو ومدرسة البنات برادس ومدرسة البنات بنهج الباشا

وقد اصبح دور المعهد الرشيدي مرموقا من طرف الحكومة والشعب ونال عطف فخامة رئيس جمهوريتنا وشاركت (فرقة المعهد الرشيدي) بقيادة الاستاذ الطاهر غرسةفي مهرجان(قصر المرمر بصقانس)بمناسبة عيد ميلاد فخامة الرئيس وتشرفت باقامة حفل (بقصر قرطاج) للجمهورية التونسية ونالت هذه الفرقة كامل الاهتمام من فخامة رئيس جمهوريتنا وحرمه المصون، واقام المعهد في موسمه الفارط (50) حفلة امها ما يزيد عن (25) الف من جميع الطبقات من انصار الفن والادب. وحضرها كبار الشخصيات في عالمي الفكر والثقافة امثال زهدي يكن رجل الحقوق وفلسفة التشريع اللبناني وفيلسوفالعالم العربي الاستاذ ميخائيل نعيمة الذي اعلن انه لايفارق تونس قبل زورته للمعهد الرشيدي وسجل كلمة لطيفة بسجله الذهبي وفي العام الفارط زار تونس ممثل اليونسكو الاستاذ دنيال دنيلو الذي قدم الى تونس لتسجيل (اسطوانة تونس) لتضاف الى اسطوانة كل من الهند وايران ولبنان وفي هذا العام سيزور المغرب لفائدة (اسطوانة المغرب) وسيبرز (صوت تونس) في هذا العام مضافا الى تلك المجموعة العالمية التي عرفنا انها

بلغت (52) اسطوانة فنية لكل واحدة لونها وطابعها عملت على نشرها منظمة اليونسكو للتعريف بالفن الشرقي والغربي .

وختم هذا الموسم باقامة (50) حفلة فنية تحت اشراف كتابة الدولة للشؤون الثقافية والاخبار في اطراف الجمهورية التونسية وكانت (فرقة المعهد الرشيدي) هي التي تفتتح الملتقيات التي وقعت في تونس وسيدي ابي سعيد والقيروان.، ونالت رضا الجمهور حيثما حلت وارتحلت وتهاطلت رسائل التقدير والاعجاب على المعهد الرشيدي وعلى كتابة الدولة للشؤون الثقافية ونال المعهد كامل الاهتمام من طرف السيد كاتب الدولة للشؤون الثقافية الاستاذ الشاذلي القليبي، وكان حظ تونس الفنية في (فرقة المعهد الرشيدي) متجليا في نيلها (كأس نحاسي) من صنع القيروان قدم من طرف اللجنة الثقافية القيروانية في ملتقاها الذى ضم القيران والكاف وزغوان والرشيدية بصفة رمزية ونال جميعهم الجوائز تقديرا للفن وأهله وعلى ضوء هذه الملتقيات ادركنا التجاوب الذي وقع بين الشعب وفنه القومي سواء في الموسيقى او الرقص.

ذلك هو شأن تونس في ميدان الموسيقى ويا حبذا لو تحرى صالح جودت وامثاله واستقرؤوا احوال البلاد العربية قبل نشر ما ينشرون. ان الأمانة تقتضي ذلك وكذلك الصحافة الشريفة.

علي الجندوبي

حول الجـوائز العلمية والادبية

بقلم : ابو الـوليد

فى اواخر كل سنة تقوم ضجة فى العالم حول تخويل جائزة نوبل Nobel التى اسست بفروعهـا الخمسة من اجـل منح النبوغ والعبقرية فى مختلف ميادين الفكر ما يتشوفان اليه بطبيعتهما من التمجيد والاكرام المطبق آفاق الارض حتى يصبح صيتهما مصداق قول الشاعر المعروف

فسار بـه من لا يسير مشمرا   وغنى بـه من لا يغنى مغـردا

والجائزة نوبل Nobel قصتها الطريفة الحرية بالذكر بما حوته من مجال للعبرة • فهى من ابتكار وتاسيس وتمويل العلامة الكيميائى السويدى الفريد نوبل Alfred Nobel (ولـد سنة 1833 وتوفى سنة 1896) • وهو اول مختـرع لمادة مفـرقعة مبيدة اطبق صداهـا الخـافقين ، وتلك هى مـادة النيتورغليسيرين التى صنع منهـا الديناميت • وهى التى مهـدت السبـل للمجازر الهائلة التى تضخمت بها قائمة الضحايا طيلة الحروب العالمية ومـا اشبهها ، الى ان وفق العلم الى استخدام القوى الذرية وتسخيرها لعين الغرض الفتاك ، فاصبحت من يومئذ مخترعات نوبل الاعيب صبيان ، وانقلب جحيمها الى فردوس نسبى

واحرز المخترع المحظوظ ثروة طائلة نتيجة لرواج مخترعه ، وكأنما خامره بعض الندم من جراء ما جنـاه مخترعه من الويلات ، فاراد ان يكفر عن ذلك بعض الشىء • فخصص قبيل مـوته بمقتضى وصية له معظم ثـروته لانشاء جائزة نوبل العالمية ذات الفـروع الخمسة • اذ هى عبارة عن خمس جـوائز سنوية تمنحها المجامـع العلمية السويدية احداها مخصصة للطب والعلـوم الحيوية ، وثانية للعلوم الطبيعية ، وثالثة للفلسفة ، و رابعة للأدب وما اليه ، وخامسة تخول من طرف مجلس النواب السويدى تسدى لمن قدم اجل خدمات لقضية السلم والتاخى بين سائر الشعوب • ولا ينظر فى تخويل هذه الجوائز الى معتقد او جنس • ففى كل سنة تقريبا يتوج اكليل هذه الجـائزة السنية قدرا ومقدارا مفرق نابغة فى الأدب ، ومفرق نابغة فى الفيزيا وما اليها الخ•

اما المحرز لهذه الجائزة فى مضمار الآداب عن سنة 1962 فهو الكاتب القصصى الاميركى جوهن ستآينبك John Steinbek وهو من مواليد اوائل القرن العشرين ، وفى طليعة من ذاع صيتهم من كتاب الولايات المتحدة حوالى منتصف القرن العشرين فما بعد ذاك التاريخ • نخص بالذكر منهم Hemingway و Faulkner Dos Passos ولربما كان هذا الاخير هو الذى كان يبدو

المتأهل لنيل ذاك الفخر ، لكن المقـادير او اغلبية الاصوات بالمجمع العلمى السويدى قد رجحت كفة ستاينبك المحظوظ ·

نشأ ستاينبك فى وسط متواضع شعبى بـولاية كاليفورنيا التى اتخذ من مدنها وقراها فيما بعد اطارا لقصصه · وقد قضى طفولة هادئة بين والد موظف وأم معلمة ، واضطر وقد بلغ اشده الى احتراف مهنة البناء كيما يسدد نفقات دراساته بجامعة سطانفرد Stanford

ويمتاز قصص اديبنا باتجاهه الى تصوير واقـع رجل الشعب وتمجيد ما يبذله من الجهود المضنية بغية الحصول على عيش افضل واقرار قدمه فى الارض· فابطال رواياته كلهم متواضعو المرتبة فى سلم المجتمع ، الا ان الكاتب يشملهم بعطفه ويغدق عليهم من اصباغ فنه ما ينفخ فى افرادهم ومجموعهم حياة تطفح بالقوة وتدفع بنا الى مزيد الغبطة والارتياح لتتبع آثار الكاتب القدير المتحرى صدق الوصف ونصاعة التعبير · وتتراوح تآليفه بين لهجتى المهزلة والمأساة، مفصحة فى تعدد مناحيها عن شخصية قـوية وعبقرية جبارة عديدة نـواحى الابتكار·ومما خلد اسمه روايته المشهورة « اعناب النقمة » Les raisins de la colère وقصته الاخرى « جرذان واوادم (1) » الخ··

هذا ولا ننس ·· فى ميدان النتاج الادبى ، ان نذكر الدور اللامـع الذى لعبته وما نفتئت تلعبه جائزة غونكور Prix Goncourt الادبية الفرنسية · ولا يخفى ما لهذه الجائزة من اياد بيضاء فى توجيه الانتاج الادبى نحو الابداع والطرافة والتجديد · ولهذه الجائزة التى اصبحت تقليدية تاريخها وقصتها · فقد انشئت تبعـا لوصية الكاتب القصصى الفرنسى ادمـون دى غونكـور Edmond de Goncourt ولد سنة 1822 و توفى سنة 1896 ·

وقد عرف دى غونكور ، الذى كان يكتب بمعية اخيه الاصغر جول دى غونكور Jules de Goncourt بمنحاه التجديدى واتجاهه الواقعى فى كتابة القصص فكان من مؤسسى المـدرسة التى نبغ ضمنهـا اميـل زولا Emile Zola وكان يقصد بتاسيس تلك الجائزة الى تشجيع الكتاب الابداعيين ، المناهضين للنزعة الرجعية التقليدية التى يمثلهـا المجمع العلمى Académie Française فى تخويلـه جوائزه السنوية لمن دانـوا بتلك النظريات التى كان يراهـا دى غونكور معرقلة لسير الفكر الحر المتجه نحو الابداع · ولا غرو فالرجل قد عمد الى تأسيس مجمع أدبى على حدة منحه اسم غونكور فدعى مجمع غونكور

(1 Des souris et des Hommes

الأدبــي Académie Goncourt واهم وظائف هذا المجمع هو ان يعمد في اواخر كل سنة الى التصويت من اجل تخويل جائزة غونكور لأبــرز كتاب يمتــاز بطرافته ومنحاه في التفنن والابتكار • وتعد اكاديمية غونكور عشرة اعضاء من رجــالات الادب ، وذلك بمقتضى ما جــاء في وصية مؤسسها الذى وقف امواله من اجل تخويل الجائزة وتسديد مرتبات الاعضاء وكان المبلغ المقرر في ذاك العهد يبلغ خمسة آلاف فرنك من فرنكات اواخر القرن المنصرم ، ولكن المقدار المالي لجائزة غونكور قد تضاءل واصبح عدما من الاعدام بتضاؤل العملة وتماحقها • لكن ذلك لم يحط من مقدار جائزة غونكور التي هي اليوم اسنى جائزة ادبية اوروبية ، فلا مراء ان من تسلم جائزة غونكور فقد اصبح علما من اعلام الأدب ، واخذ القراء يتهافتون على قراءة قصصه ، وحصل له ولناشر كتبه موفور الربح •

واجتمع اعضاء مجمع غونكور على عادتهم هذه السنة ، وتناولوا الغداء في مطعمهم المألوف ، واقترعوا في شان من تخول اليه جائزتهم • فكانت الظافرة بالجائزة كــاتبة حديثة العهــد بالفرنسة اذ كانت من اصل بــولوني واسرة يهودية كانت تقطن فرسوفيا ، فانتابها ما انتابها من جراء الاضطهاد النازى الذى سلط نقمته على سكان الحارة اليهودية بفرسوفيا واذاقهم سوء العذاب• ولم تخرج الكاتبة المذكورة وهي أنا لانغفوس Anna Langfus عن موضوع اضطهاد وتعذيب بني جنسها في قصتها «حقائب الرمال» Les bagages de sable التي نالت جائزة غــونكور • فلا ريب ان الكاتبــة المتجنسة حديثا بالجنسية الفرنسية قد عبرت فيها عن تجربتها الخاصة وما لقيته بنفسها من معاملــة الجستابو Gestapo الالمانية • وانها لنفس التجربة التي استغلتها في قصتها المتقدمة المعنونة « ملح وكبريت » Du Sel et du Soufre

ومما يلاحظ ان هذه هي المرة الثالثة التي تخول فيها جائزة غونكور لأجنبي يهودى شرد عن اقطار اوروبا الشرقية ، مما جعل بعضهم يتندر بهذه الظاهرة الطريفة في حد ذاتها • ومعلوم ان بعض التصانيف التي اجيزت في احدى هذه السنوات الاخيرة كان مــوضوعه مشابها عــلى طول الخط لما حكته أنــا لانغفوس عن تعذيب بني جلدتهــا • ومهما كان من امــر فأعضاء اكاديميــا غونكور ليسوا ممن يشك في حسن ذوقهم ، ولا ممن يــرتاب في حصافــة آرائهم • ولئن اخطأوا المرمى احيانا ولم يكللوا بعض الآثار التي ظهرت فيما بعد قيمتها ، فالفضل يرجع الى مجمع غونكور في التعريف بكتاب مشاهير من امثال مــرسيل بروست Marcel Proust والاخوين طــارو Tharaud وغير هؤلاء

ابــو الــوليد

أصداء الفكر

• الشعر قافات أو لايكون

أجرى السيد ابو القاسم كرو وزبيدة بشير حديثا في الاذاعة الوطنية مع الاستاذ الاديب عادل الغضبان تناول مشكلة الشعر الجديد ، فقرأت زبيدة من شعرها قصيدة قافية وقالت : كذا يجب ان يكون الشعر الجديد

– رائع يا آنسة

– العفو .. العفو .. يا استاذ

• ثاني اثنين اذهما واحد

حضر الدكتور احمد باكير مجلس « الفكر » فلما قدم اليه جعفر ماجد دهش وقال : كنت أحسبك « جعفر ماجد » العراقي حتى عرفتك

جنبنا الله الازدواج وجعل لكل عبد رسما ولكل جسم اسما !

• الاقتصاد نصف المعيشة

انتهى زاد السيد حمادي بن حليمة صاحب حصة « عرض المجلات » بالاذاعة التونسية قبل الشهر اذ لم يجد بين يديه شيئا من الأدب التونسي الجديد فعمد الى قراءة شعر ابي تمام

ما الذي جعل السيد ابن حليمة يأكل طعام الشهر في اسبوعين ؟

وبالاضافة الى ذلك فالسيد بن حليمة يسيء الاكل او القراءة على الاصح فيخطيء بعض الشعراء بقراءته الغالطة فيقرأ همزة الوصل مثلا همزة قطعية وينسب الغلط للشاعر : اود لو اني أعبر العمر ساهدا او يقرأ قراءة مصحفة ، يقول ابو تمام :

بكر فما افترعتها كف حادثة ...

فيقرأها ابن حليمة :

بكر فما افتر عنها كف حادثة !...

ان سرعة الاكل تفسد الهضم

• قابس « جنة الدنيا »

هذا كتاب جديد لصديقنا السيد محمد المرزوقي اصدرته له (مكتبة الخانجي) بمصر و (مكتبة المثنى) ببغداد والكتاب يبحث في تاريخ مدينة قابس وسكانها وواحتها ومعالمها الخ..

كما اصدرت له ايضا (مكتبة النهضة المصرية) ديوانه الشعري بعنوان (بقايا شباب)

ويصل الكتابان الى تونس قريبا ونحن نهنىء صديقنا بهذين الكتابين ونترقب منه المزيد .

• خير ان شاء الله !

افاق أدباء القيروان على برقيات أسرع بها رجال البريد من كل جانب !

القيروان تصدر مجلة شهرية – ثلاث قصائد – بحث

هل ظهرت مجلة البرقيات ؟

◆ حضر الجامع وغاب الحصير !

انهى الأستاذ ابراهيم شبوح طبع كتاب جديد ـ لكن الطابع مازال في انتظار المقدمة ـ والكتاب نص للرعيني عن تاريخ الأندلسي ـ

◆ ... والعود أحمد !

قدم الأستاذ محمد الحليوي الى تونس في أوائل الشهر للاتصال بالمسؤولين عن الطباعة والنشر وقد عزم على جمع احاديثه عن الأدب التونسي ورسائل أبي القاسم الشابي

اول الغيث قطر ...

◆ الثقافة

يعتزم السيد أبو القاسم كرو اصدار مجلة ثقافية تربوية جامعة اسمها « الثقافة » هل نثقف الأدب أم نؤدب الثقافة ؟

◆ أقامت رابطة الأخوة بين تونس والجمهورية العربية المتحدة حفلا كبيرا في 20 اكتوبر سنة 1962 القى فيه الدكتور مصطفى فهمي مدير مدرسة ليسه الحرية محاضرة عنوانها « مع ابن خلدون في شمال افريقيا » حضره نخبة من الادباء والشخصيات العربية والمغربية والجزائرية بالاسكندرية .

◆ اقامت رابطة الاخوة بين تونس والجمهورية العربية المتحدة بمدينة الاسكندرية مهرجان شعري بمناسبة الذكرى الثامنة لثورة الجزائر في 15 نوفمبر سنة 1962 اشترك فيها عشرون شاعرا واديبا .. وحضرها نخبة كبيرة من رواد الادب في العالم العربي

◆ تونس والعراق

احتفلت الجمهورية العراقية في اوائل ديسمبر المنصرم بذكرى مرور احد عشر قرنا على وفاة الكندي كما اقامت مهرجانا كبيرا وفي نفس الوقت بمناسبة الذكرى الألفية لتاسيس بغداد . وقد مثل الجمهورية التونسية وفد يتركب من الاساتذة : الفاضل بن عاشور عميد كلية الشريعة واصول الدين والمحجوب بن ميلاد الاستاذ بالجامعة التونسية والاستاذ عثمان الكعاك محافظ دار الكتب الوطنية والاستاذ مصطفى زبيس متفقد الآثار الاسلامية . اما الاستاذ حسن حسني عبد الوهاب الذى وقعت دعوته رسميا فقد تعذر عليه السفر في آخر لحظة لتوعك خفيف طرا على مزاجه ـ حفظه الله وقد أرسل دراسته القيمة وموضوعها دار الحكمة بالقيروان . واليك بعض معلومات عن بغداد والكندي :

◆ بغداد مدينة السلام

اختار المنصور الخليفة العباسي بقعة بغداد ليبنى عليها المدينة لاسباب جغرافية وطبيعية واقتصادية وعسكرية .

ابتدىء بحفر أساسها عام 145 هـ (762 م) ووضع المنصور بيده أول آجرة في بنائها اقيم لها أول الامر سوران قطر دائرة السور الداخلي 1200 ذراع وارتفاعه 35 ذراعا وعرضه من اسفله

20 ذراعا ومن أعلاه 20 ذراعا وعرض ما بين السورين مائة وستون ذراعا وفي كل سور اربعة أبواب وبين كل باب وآخر ميل • وعلى كل باب قبة ذاهبة في السماء سمكها خمسون ذراعا وعلى راس كل قبة منها تمثال يتجه الى حيث تاتي الريح • وبين كل قبتين 28 برجا • ثم أقام المنصور حول مركز المدينة سورا داخليا ثالثا فتتالف من مجموع الاسوار الثلاثة دوائر ذات مركز واحد هو قصر الذهب •

تم بناء بغداد عام 149 هـ (766 م) وكذلك جميع مرافقها • وأصبحت هذه المدينة المدورة « بغداد » في عهد العباسيين كعبة المفكرين والشعراء والفنانين من كل صوب • وسادت فيها حضارة أصيلة تجلت في قصورها وجوامعها ومعاهدها العلمية ومكتباتها وبذلك كانت شعلة وهاجة للفكر والمدنية •

مرت على بغداد اربعة أدوار • العهد العباسي ، ويبتدىء بانشاء بغداد وينتهي بسقوطها بأيدي المغول عام 656 هـ (1258 م) • والعهد المغولي وما أعقبه من تطورات الى عهد الاحتلال الانكليزي عام 1917 • والعهد الثالث وهو الاحتلال الانكليزي والحكم الملكي • والعهد الرابع وهو عهد الجمهورية الذي ابتدأ بثورة 14 تموز 1958 •

◆ بغداد الحديثة

تبلغ مساحة بغداد حاليا وبموجب حدود امانة العاصمة 810 كيلومترات وهي اربعة اضعاف حدودها السابقة عام 1956 • وتبلغ نفوسها من دون الارياف في الوقت الحاضر حوالي المليون نسمة

ازدهرت عاصمة ثورة تموز ازدهارا شمل النواحي العمرانية والصحية والثقافية والاجتماعية بصورةخاصة : فانتشرت الكليات والمعاهد العليا والمدارس والمستشفيات العامة والحدائق والمنتزهات •

كان للاسكان حظ كبير في تطوير بغداد بموجب التخطيط العام لرفع المستوى المعاشي لابناء الشعب وعلى هذا الاساس بنيت مدن كاملة احاطت بغداد ، كمدن القاسم ، والزعيم ، والحارثية ، والمحامين والاطباء والمعلمين والموظفين ، والعمال والمهندسين •• الخ • فكان هذا العمل السريع الجبار ثورة في الاسكان وتطويرا لمعيشة الفرد العراقي في بيوت حديثة صحية •

◆ الكندي « فيلسوف العرب »



صورة زيتية للفيلسوف الكندي

ولد ابو يوسف يعقوب بن اسحاق الكندي في مطلع القرن التاسع الميلادي حوالي 185 هـ (867 م)

في مدينة الكوفة حيث كان ابوه اميرها ، وتوفي في بغداد في أواخر سنة 252 هـ (867 م)

نشأ وترعرع في الكوفة وتعلم فيها وانتقل الى بغداد

اجمع المؤرخون على انه كان عظيم المنزلة عند الخليفة المامون والخليفة المعتصم وكان مؤدبا لأحمد بن المعتصم • اطلع على الفلسفات والعلوم المنقولة عن الاغريق والفرس والهنود وتعلم اللغة اليونانية وترجم بها •

وضع الكندي 22 كتابا في الفلسفة و 19 كتابا في النجوم و 16 كتابا في الفلك و17 كتابا في الجدل و 11 كتابا في الحساب و 23 كتابا في الهندسة و 22 في الطب

و 12 فى الطبيعيات و7 كتب فى الموسيقى و 5 كتب فى تقدمة المعرفة و 9 فى المنطق و 10 فى الاحكاميات و 14 فى الاحداثيات و 8 فى الابعاديات .

وله كذلك رسائل فى الاهيات ارسطو ، وفى معرفة قوى الادوية المركبة ، وفى المد والجزر ، وفى علة اللون الازرق الذى يرى فى الجـو ، وفى بعض الآلات الفلكية ، ومقالات فى علم المعادن وأنواع الجواهر والاشباه وأنواع الحديد والسيوف .

قال العـالم الشهير كاردانو « ان الكندى من الاثنى عشر عبقـريا الذين هم من الطراز الاول فى الذكاء ..» وقال الفيلسوف باكون « ان الكندى والحسن بن الهيثم فى الصف الاول مـع بطليموس ..»

كان الكندى يعتبر علم الرياضيات الذى تلا عهد بيثاغوراس أساسا لجميع العلوم . وحاول على النمط الافلاطونى الجديد أن يـوحد بين آراء افلاطون وارسطو . وقد بـرع فى تطبيق علم الرياضيات على العلوم الطبيعية وعلى الطب . ولقد احتل الكندى مكـانة مرموقـة فى العصور الوسطى كفلكى كبير ، واعتبر أحد أعاظم علماء الفلك التسعة ، وبرع ايضا فى حقل الكيمياء وعلم الابصار ، وعـالج مواضيع علمية بحتة مثل مـرور الضوء فى خطوط مستقيمة ، وعملية الرؤية المباشرة ، وتأثير المسافات وزاوية الابصار ، وتحليل الاسباب التى تتحكم فى حركات المـد والجـزر .

ورغم ان الكندى كان فى الدرجة الاولى فيلسوفا طبيعيا الا انه عالج الموضوعات الفلسفية البحتة كمعضلتى النفس والعقل .

ترجم الكندى من كتب الفلسفة الكثير واوضح منها المشكل ولخص المستعصى وبسط العويص.

كان الكندى ذا روح علمى صحيح . وقد قال مرة (العاقل من يظن ان فوق علمه علوما فهو أبدا يتواضع لتلك الزيادة . والجاهل يظن ان قد تناهى فتمقته النفوس لذلك).

♦ رواية توفيق الحكيم « عودة الروح » فى الاتحاد السوفياتى

رغم مرور ثـلاثين عامـا منذ ظهور الرواية الاولى ، « عـودة الـروح » للروائى والكاتب المسرحى المصرى المرموق توفيق الحكيم ، فان هذه الرواية تحظى دائما باهتمام عميق ليس فقط فى العالم العربى ، بل ايضا فى البلدان الاخرى .

وقد افادت مجلة « الطريق » اللبنانية الغراء بان السينمائى الايطالى زافاتينى بدا بالتقاط مناظر فيلم على أساس هذه الرواية لتوفيق الحكيم . كما انها ستصدر ترجمتها الروسية الجديدة عن دار المنشورات الادبية بموسكو .

واضافت المجلة : وقد تعرف القراء الروس الى انتاج توفيق الحكيم خلال العقد الرابع من من هذا القرن بفضل الاعمال العلمية للمستشرق ـ المستعرب الروسى اغناطيوس كراتشكوفسكى. وفيما بعد ظهرت رواية « عـودة الروح » فى لينغراد عام 1935 فى ترجمة المستعرب السوفياتى البارز م. ا. ساليه . وهذا العمل الذى قام به الكاتب الشاب سرعان ما اجتذب انتباه الجمهور الواسع فى الاتحاد السوفياتى . وفيما بعد ، حينما شهدنا اعمالا اخرى لتوفيق الحكيم ، وعـلى

وجه التخصيص ، « يوميات نائب في الارياف » (عام 1959 ، موسكو) ورواية « صفقة » (1960) وعدة قصص وحكايات ، كان القارىء السوفياتي قد علم بان توفيق الحكيم هو كاتب قوي الموهبة وفيلسوف ، وضع قلمه في خدمة الشعب ذلك ان عامة الناس المصريين هم دائما الابطال الرئيسيون لكتب توفيق الحكيم • تلك هي ، بوجه خاص ، الحال في رواية « عودة الروح » وربما ، لاول وهلة ، لا يرى فيها القارىء المدقق سوى قصة حب شقي ، ولا يلمس فيها ، في البدء اية قضية اجتماعية • مشاهد روائية مؤثرة وعاطفية ، حزينة وبهيجة وحوادث ممتازة مستمدة من حياة الريف والمدن ، ومواقف قليلة التعقيد يضع الكاتب ابطاله فيها ، ذلك ، كما يبدو ، ما يؤلف سياق القصة • لكن هذا ليس سوى الظاهر فالقارىء المتأني سرعان ما سيلاحظ فيها الفكرة الرئيسية : الروح الوطنية لدى الشعب المصري ، هذه الفكرة التي نشأت ، وازدادت صلابة طوال التاريخ ، والتي تعيش منذ اقدم العصور حتى أيامنا • هذه الفكرة هي التي دفعت الشعب المصري الى الثورة عام 1919 ضد الغزاة البريطانيين •

لقد ظهرت موهبة توفيق الحكيم خصبة في مختلف الانواع الادبية ، وفي كل نوع يعجب القارىء بعبقرية هذا الرجل الموهوب الذي يحب وطنه وشعبه •••

وبين النخبة المجيدة للكتاب المرموقين في العصر الحاضر ، يقف توفيق الحكيم في المرتبة الاولى الى جانب طه حسين ومحمود تيمور • وعمل هؤلاء الكتاب الثلاثة ، يرتفع كاهرام الجيزة ، عاليا جدا ، بحيث انه لا يرى في العالم العربي وحده ، بل ايضا فيما وراء حدوده وهؤلاء الكتاب يقراهم اليوم جميع اولئك الذين يتعلقون بأفكار النزعة الانسانية ، وافكار السلم والصداقة بين الشعوب • ولاجل هذا سيطالع القراء السوفياتيون بكثير من الاهتمام كتاب توفيق الحكيم الذي يصدر قريبا •

◆ **نسائيات !!•••**

استجوب مندوب مجلة الأحد البيروتية (العدد 613) الكاتبة المصرية سهير القلماوي عن وجود أدب نسائي فاجابت :

ـ انا لا اعترف بأن هناك ادبا « رجاليا » ، وادبا « نسائيا » ••لان الادب يجب ان يكون أدبا أولا وقبل كل شيء ••

ومن يشتغل بالادب •• هو « أديب » سواء كان رجلا او انثى !•

لننطلق قليلا خارج الجمهورية العربية المتحدة ••

فانا اعتقد ان أية قصيدة لنازك الملائكة •• لن يتغير في قيمتها شيء لو وضعنا في نهايتها « سامي الملائكة » مثلا ••

على هذا الصعيد •• فالادب مزدهر في العالم العربي كله من زاويته القصصية والروائية •• أما الشعر فأعتقد ان العميق منه ـ وفي المستوى ـ قليل حتى الآن ••

« الفكر » : يجدر بالقراء في هذا الصدد ان يقارنوا راي سهير القلماوي بما اكدته بنت الشاطىء في محاضرتها عن الأدب النسائي في مؤتمر الأدب العربي المعاصر المنعقد بروما في

اكتوبر 1961 وقد سبق أن نشرت بمجلة الفكر .

فما راى الشاعرة زبيدة بشير ؟ وهل يمكن ان يقرض ما قرضته هى من الشعر « سامى » بشير مثلا ؟

واتقاء من ردود فعل شعرائنا لا نتجاسر طبعا على وضع السؤال المعاكس :

◆ تاريخ افريقيا الجامع

ان (اكادمية العلوم التشيكوسلوفاكية فى براغ) قد كلفت « المعهد الشرقى » بتاليف كتاب « تاريخ افريقيا » حيث يتخصص 12 من العلماء فى جمع تاريخ تلك الشعوب المتناثرة على كامل القارة الافريقية التى كانت من أعمر القارات القديمة التى أفرغها من عمرانها النخاسون الاروبيون منذ القرن الخامس عشر بما كانوا يسبونه من اهلها فيأخذون الشبان والشابات الاقوياء ليتداولوا بيعهم مثل الحيوانات ليستعملوهم فى خدمة اراضيهم وعلى سفنهم وغير ذلك من الاغراض الخسيسة . فيقول الدكتور ايفان هربيك :

« قبل وصول القراصنة الاروبيين الى افريقية ، كان هناك دول كبيرة ذات نظم ادارية واجتماعية متقدمة وقد بلغت الى نتائج ثقافية وفنية ملحوظة . الا ان مصيبتها ان كانوا مسالمين واحسنوا قبول الرجل الابيض الاروبى الذى نزل عليهم من البحر ، يحسبونه مثل الرجل الابيض العربى الذى جاءهم بحضارة ودين لا فرق عنده بين الاجناس . وهكذا سهل على هذا القرصان ان أخذ خلال 300 سنة قرابة الـ 000 000 70 من الرجال الاشداء الذين تحملوا مشقة التجديف والملاحة الى امريكا وحدها وتحملوا اختلاف الاجواء وتكسير الارض فيها .

ويرى البحاثة الزنجي الامريكي و. بورجهاردت دوبوا ان تجارة الرقيق قد حرمت القارة الافريقية من 000 000 150 مليونا بين شباب وشابات من الاقوياء الاصحاء ، بحيث ابقت القارة يعمرها الشيوخ وحدهم حتى كادت تفقد الجنس البشرى مثلما ابادت كواسر الحيوانات فى طلب جلودها وفرائها وعاج انيابها . فلا غرابة ان يكون قد يتوقف التزايد والانتاج ، ولا غرابة ان يكون قد توقف التطور باجمعه ، ولا غرابة ان يتقهقر .

ويقول الدكتور ايفان هربيك : ان الاحصاء قد برهن على وجود 800 قبيلة تتكلم حول الـ 250 لغة متباعدة فى الفهم اليوم . الا ان لغة الكتابة فى مجموع القارة الافريقية هى اللغة العربية وحدها . برغم الجهود الاستعمارية والمساعى الرهبانية . واقدم مالدينا كتاب « البكرى » الذى وصف «براغ » باسلوب جميل فى القرن الحادى عشر وحدث عن « غانا » ايضا . وان خيبة الاستعمار الاروبى قد أتته من انانيته وشعوره بالميز العنصرى حتى ان تلاميذ السنغال قد علمتهم المدارس الفرنسية ان يقولوا « ان آباءنا الغوليين .. » وفى الوقت نفسه ينظر المستعمرون لخريجيهم نظرة الاحتقار !

◆ اصدر توفيق الحكيم آخر كتبه هذا الاسبوع ، بعنوان « يا طالع الشجرة » وهى مسرحية تعرض الحياة المصرية كما هى اليوم . فشخصياتها : زوج وزوجة ومحقق وخادمة ودرويش وحفار ولبان .

وتمتاز بحسن العرض وجدة الاسلوب ، مع المحافظة على اللغة العربية فى حوار مختلف الطبقات الشعبية التى تمثل حقيقة حضارة عصرها كما دخلت على حضارة الامة المصرية التى تتسلسل فيها حلقات التطور .

تاريخ المالكية فى الشرق

ذلك هو عنوان الاطروحة التى نـال بها الاستاذ احمد بكير الدكتورا. وقد طبعها على نفقته بتونس (بمطبعة الاتحاد العام التونسى للشغل) وأهدانا ـ مشكورا ـ نسخة منها

الجيــــل :

ذلك هو عنوان المجلة المصورة الجـديدة التى ستبرز قريبا ويديرهـا الصحفى الناشط السيد الهادى السفارى

◆ اتصلنا بالعدد الأول من « **الجيــل** » وهى مجلة داخلية يصدرهـا تـلامذة وتلميذات مدرستى الترشيح بتونس وكانت حافلة بالمواضيع الحية الشيقة التى تناولها « الجيل » الصاعد من المعلمين باسلوب راق ٠ ونحن نرجو لهم التوفيق ونشجعهم على المضى الى الأمام ٠

كتب وردت على المجلة

- **هـذا أنـا** بقلم : الدكتور على الناصر (المطبعة العصرية ـ حلب)
- **من وحى ألف ليلة وليلة** بقلم : فـاروق سعـد (منشورات المكتبة الأهلية ـ بيروت)
- **ديوان د عبل بن على الخزاعى** جمع وتحقيق عبد الصاحب الدجيلى (مطبعة الآداب ـ النجف)
- **طيـور ايلـول** بقلم : امـلى نصر الله (المؤسسة الأهلية ـ بيروت)
- **تاريخ الفكر العربى الى ايام ابن خلـدون** بقلم : الدكتور عمر فروخ (المكتب التجارى للطباعة والتوزيع ـ بيروت)
- **أرضنـا الجـديدة** بقلم : خليـل رامـز سركيس (منشورات الندوة اللبنانية ـ بيروت)
- **ديوان المزرد بن ضرار القطفانى** (برواية ابن السكيت وغيره وشرح ثعلب) حققه خليل ابراهيم العطية قـدم له محمد رضا الشبيبى (مطبعة أسعد ـ بغداد)
- **الأدب العربى المعاصر** أعمال مؤتمر روما المنعقد فى اكتوبر 1961
- **المـلاح الشاعـر** دراسة تحليليـة قـام بهـا محسن الحبيب (مطبعة اسعد ـ بغداد)
- **مصر : مجتمع عسكرى** بقلم : أنور عبد الملك (دار الساى للنشر ـ بـار يس)
- **بـودودة مـات** قصة بقلم : رشاد الحمزاوى (الشركة القومية للنشر والتوزيع ـ تونس)
- **فـوارة الظمأ** بقلم : محمد الصباغ (الشركة القومية للنشر والتوزيع ـ تونس)
- **القلب الكبير** بقلم : عبد العـزيز السعداوى (الشركـة القومية للنشر والتوزيع ـ تونس)

حـوار

رئيس التحرير توفيق صائغ

- مجلة ثقافية عامة تصدر ست مرات فى السنة
- تستهدف خدمة القارىء العربى الواعى المنفتح
- تنشر خيـرة النتـاج الجديـد ، فـى الادب والفـن والفكـر والاجتماع ، وتستعرض النشاط الثقافى فى مختلف البلدان العربية والاجنبية
- تعنى بقضيـة الحريات ، وبصـورة خاصة حرية الفكر ، فى العالم كله
- حوار حق بين رأى ورأى وبين ثقافة وثقافة

صدر العدد الاول فى 1 تشرين الثانى (نـوفمبر) 1962
ثمن العدد 100 مليم تونسى اشتراكات مخفضة للطلاب
ص٠ب٠ 4737 بيروت لبنان

الفهـــرست

العـدد الرابع ـ جانفي 1963 ـ السنة الثامنـة

الفكـر

مجـلة ثقافيـة

تصدر بتونس شهـريا

مـؤسسهـا ومديرهـا المسؤول

محمـد مـزالي

رئيس التحرير

البشير بن سلامة

الادارة : 13 نهـج دار الجلـد ـ تـونس

تليفون : 260 778

الحساب الجـاري : 33769 تونس

العنـوان : صندوق البريد 556 تـونس

- تصدر مجلة الفكر عشر مرات في السنة وتحتجب في شهـر اوت وسبتمبـر
- قيمـة الاشتـراك السنـوي :
  - اشتراك عادي في تونس دينار و 200م
  - اشتراك الانصار 3 دنانير
  - في المغرب وليبيا دينار ونصف
- الاشتراكات يرسل معلومها في حوالة بـريـدية بـاسم المجلـة او يصب في حسابهـا الجـاري
- المراسلات تكـون جميعـا بـاسم : مدير مجلـة الفكـر صندوق البريد عدد 556 تـونس
- الرسائل لا تـرد نشرت ام لم تنشر

EL FIKR - Revue culturelle mensuelle - 8e année - N° 4 Jan. 1963

طبع وحفر الشركة التونسية لفنون الرسم 20 نهج المالطيين ـ تونس

تـوزع هذه المجلة الشركة القـومية للنشر والتوزيـع